النظرية المادية في المعرفة

ما هي المادية

١

تأليف
روجيه غارودي

ترجمة
محمد عيتاني

دار المعجم العربي
بيروت

إهـــــــداء2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

النظرية المادية في المعرفة

ما هي المادية

تأليف
روجيه غارودي

ترجمة
محمد عيتاني

مقدمـــة

ان المسألة الاساسية في كل فلسفة هي مسألة بدايتهـــا ؛ ونحن منضوون في حقيقة واقعية ذات وجوه متعددة . فهناك الطبيعـــة ، وظاهراتها ، وصيروورتها ، ثم هناك افكارنا ، وعلاقاتنا الاجتماعية وتاريخنا . ونحن نعاني الطموح الى الوحدة . وآخر كلمة في فلسفتنا تكون رهناً بأول كلمة ؛ فمن اين نبدأ ؟ أنبدأ بالأشياء ، ام بالوعي الذي يتكون لدينا عنها ؟ وهل الذهن اوّل ، بالنسبة الى الطبيعة ؟ أم ان الطبيعة هي العنصر الأوّلي ، فلا يكون الفكر إلا ازدهارها النهائي الأعلى ، في نهاية نموّ تطوري طويل ؟

سوف تُتاح لنا فرصة التدليل على عدم وجود « سبيل ثالث » للنجاة من هذه المشكلة المحدودة بوجهتين : وهي مشكلة المثاليـــة والمادية .

أ) ما هي المادية ؟

ن المادية تؤكد :

اولا : ان ظاهرات الكون هي مختلف وجوه المادة التي هي في حركة ، اذ ان المادة هي ما يوجد خارج ذهني ، وخارج كل ذهن ، وليس بحاجة الى اي ذهن كي يوجد .

ثانياً : ويترتب على هذا ان المادة هي الحقيقة الواقعية الاولى التي ليست احاسيسنا وليس فكرنا الا نتاجاً لها وانعكاساً عنها.

ثالثاً : ان العالم وقوانينه يمكن النفوذ اليها بكاملها من قبل المعرفة التي تراجعها التجربة والنشاط العملي ويتثبتان من صحتها.

***

وهذه الفلسفة امينة كل الامانة لارشادات العلوم .

اولا : ان ظاهرات الكون هي مختلف وجوه المادة التي هي في حركة ، اذ ان المادة هي ما يوجد خارج ذهني ، وخارج كل ذهن ، وليس بحاجة الى اي ذهن كي يوجد .

تعلمنا العلوم ان الارض كانت موجودة قبل ان يستطيع أي

انسان ادراكها حسيا ، وتمثلها بالفكر .

وَعهْدَ أن كانت الارض لا يسكنها إلا وحوش العصر الثانوي âge secondaire ، تُرى لأية كائنات كانت الغابات والصخور ، والمكان والزمان ، والسببيّة ، هذه كلها ، بالنسبة لأية كائنات ، كانت تصوّرات ٍذاتية ؟ ألحيوان الاختيوزور ؟ وان كان صحيحاً أن ليس ثمة شيء بدون ذات ، فأيّ ذهن كان يفرض عهدئذ نظامه ووحدته على الطبيعة ويطبعها عليها ؟ أهو ذهن الارخيوبتريكس؟

لقد ُوجِدت الأرض ، حتى قبل كل كائن ذي حساسيّة ،قبل كل كائن حيّ . وما كان لاية مادة عضوية ان توَجد على الكرة الارضية في اول مراحل وجودها . فالمادة غير العضوية سبقت الحياة ـــ اذن ـــ وكان على الحياة ان تنمو وتتطور خلال آلاف آلاف السنين قبل أن يظهر الانسان ، ومعه المعرفة .

العلوم تقودنا ـــ اذن ـــ الى التأكيد بأن العالم قد ُوجـــد في حالات لم يكن فيها أيّ شكل من اشكال الحياة ، او الحساسية ، ممكناً ، يعني انها تقودنا الى هذا التأكيد بوجود واقع ٍخارجيّ ، هو خارج الفكر ، ومستقل عنه .

وقد يكون ثمة من يجيب على هذا التأكيد بقوله : « ان هذه الطبيعة نفسها هي ُمدْرَكَة من ِقبلك » . هذا صحيح . ولكن هل يترتب على ذلك ان الطبيعة لم تكن موجودة قَبْلي ، زمنياً ؟ اذا تذكرتُ الآن مذهبيْ ارسطو وافلاطون ، فهما ُمدْرَكان من ِقبلي ، ولكن هذا لا يعني قط ، على

الرغم من ذلك ، ان افلاطون وارسطو لم يوجَدا في الزمن الماضي قبلي .

هذا اليقين بوجود واقعٍ مستقـــل عن احاسيسنا وافـكارنا ، مستقل عن كل حسٍّ وعن كل فكر ، نراه متضمّنـــاً ايضاً في النشاط العملي اليومي كما نجده في كل عمل علمي .

ان بركلي يرثي « لهذه الفكرة المُسبّقة ، لهذا الوهم القـــائل بوجود المادة والراسخ بعمق في الاذهان . » وانطلاقاً من هـــذا الرأي،صحّ عند بركلي ان المشاعر هي المصدر الوحيد لمعارفنا . فهو يأخذ على الماديين هذه « الواقعية الساذجة » التي تعتـــبر مشاعرنا واحاسيسنا بمثابة صور للعالم المادي ، يعني صوراً عن عالمٍ خارجيٍّ عنا ، وليس بحاجة اليناكي يوجَد . وهو يقول : « ان الاحساس هو المُعطى الوحيـد الذي يمكن بلوغـه . فبأي حق سوف تذهب لتبحث وراء هذه الاحاسيس عن مقابلٍ مادي ؟ » وخلص بركلي من هذا الى القول : « ان يكون الشيء ، يعني ان يكون مُدرَكاً بالحِسّ . » فالعالم ليس شيئاً غير الأحاسيس التي أدركها عنه .

عبّر بركلي هنا عن الفرض (thèse) الاساسي لكل مثالية . وقد عبر عنه عام ١٧١٠ في كتابه « **بحث في مبادىء المعرفـــة البشرية** » . ومنذ ذلك العهد ضاعفت الفلسفات المثالية الصورَ المختلفة لهذه الفكرة ، من روحانية ، ولا أدريّة ، وتجريبيّة ، وعقلانيّة ، ونقديّة ، وظاهراتيّة ، بله وجوديّة ؛ وذلك دون ان تأتي بتعديل حاسم حقاً ، يُدخَل على حجّة بركلي : لا موضوع دون ذات .

وسوف يقول فيخته (عام ١٨٠١) بعد قرن تقريباً من بركلي :

« أثمة شيء يبدو في ذاتك او أمامك عن غير طريق الوعي الذي تدركه به ، او عبر هذا الوعي ؟ لا تجهد ــ اذن ــ للخروج من ذاتك ، لتحيط بأكثر مما تستطيع ، يعني الوعي و الشيء ، الشيء و الوعي ، او بتعبير أصح : لا هــذا ولا ذاك كلاً بمعزل عن الآخر (١) » .

وسوف يردد برادلي ، في الطرف الآخر من القرن التاسع عشر : « ان الواقع ، او بتعبير ابسط ، الوجود يعني بالضرورة وجود شيء في نطاق الحساسية ، فالحساسية ، والفكر ، والارادة (وهي عناوين كيفية تساعدنا على تصنيف الظاهرات النفسية) تؤلف مادة الوجود كلها ... ومـا أرفضه هو إمكان فصل المُحِس عن المحسوس ، المفكِّر عن المفكَّر به (٢) ... »

وبعد هذا ببضع سنوات جاء « هاملان » في كتابه : « بحث عن العناصر الاساسية للتصور » يضع التركيب **synthèse** السابق للتجربة ، السبب الضروري والكافي للعالَم والعِلم (٣) » .

واقرب الينا ، في الزمن ، نرى السيد لافيــل يقول : « بحث الفلاسفة ، في جميع الازمان ، عن ماهية الحدث الأوّلي الذي تتعلق به جميع الاحداث الاخرى ؛ ولكن الحدث الأولي ، هو انني لا استطيع وضع الموجود مستقلاً عن « الأنا » الذي يلتقطه ، ولا وضع « الأنا » مستقلاً

---

(١) فيخته : « عرض نير لجوهر احدث فلسفة » (١٨٠١)

(٢) **Apparence and reality (1893)**

(٣) لو سين **Le Senne** مدخل الى الفلسفة ١٩٤٩ ، ص١٤٠ .

عن الموجود حيث يتضمن .. وما نحاول ادراكه، انما هو مبدأ داخلي كان يطلق عليه دائماً اسم « الفعل » **l'acte** الذي **يحمل في ذاته** كل ما يمكن ان نراه، او نلمسه، او نحسّه . »

بيد ان هذه الحجة الاساسية، (عبر صورها العديدة)، هذه الحجة الوحيدة للمثالية: «نحن لا نستطيع ادراك المادة دون الذهن .» تؤدي حتماً وبالضرورة الى المثالية الفردانية (١) **solipsisme** او الى اللاهوت ..

واذا صح ان الذهن هو « المصدر الكوني الشامل » كما يعرفه السيد لوسين (٢)، او اذا سلمنا ايضاً بان الفكر، وان كان لا يخلق العالم، انما هو الذي يمنحه ما يتحلى به من القوة، والوحدة، والنظام؛ فهذا الذهن **أنا** الذي احس به : وهذا الاحساس هو احساسي أنا، وهذا الفكر **فكري انا**، وهذا الفعل **فعلي أنا** . وهذا الاحساس، وهذا الفكر، وهذا الفعل، ومنها ينسج العالم، لا املك انا الحق في تحويلها دون ان يكون ذلك في داخل **الاحساس، والفكر، والفعل**. وانا ابقى محصوراً في عزلتي . فاذا لم يكن العالم إلا احساسي، وفكري، وفعلي، فليس لي حتى الحق بالتسليم بوجود الناس الآخرين؛ فهم ليسوا الا من تصوري. وهكذا نضبط انفسنا في جرم مشهود من مناقضة انفسنا بانفسنا ومجافاتنا المنطق والسياق في اللحظة نفسها التي نعرض فيها مذهبا كهذا، ذلك

---

(١) **Solipsisme** صيغة متطرفة للمثالية تقوم على نفي كل حقيقة خلا حقيقة الذات .

(٢) المدخل الى الفلسفة . ص ٢٥٤

لانه يدعي ولا شك بانه يخاطب الناس الآخرين ؛ والتسليم بواقع وجود الآخرين خارج ذاتي وبصورة مستقلة عنها ، هو التسليم ايضاً، ومن ذلك الطريق نفسه ، بواقع الوسائل التي نتصل بوساطتهـــا : فنحن لا نتصل فيما بيننا الا بإحداثنا اصواتاً او بقيامنـــا بأعمال ، ولكن كلماتنا وافعالنا ليست الا امتثالات او تعقدات مركبة من الاحاسيس ... وهكذا منذ المحاولة التطبيقية العملية الاولى يُضطر الفيلسوف المثالي المنسجم مع مذهبه الى التسليم بواقع موجود وراء امتثالاته وتصوراته ، وليس هذا فقط واقعاً روحانياً لوعي الآخرين، وانما ايضاً الواقع المادي للاجسام البشرية التي يعبر هـذا الوعي عن ذاته من خلالها .

وثمة في كل مذهب مثـــالي ، تلك اللحظة (الظـــاهرة او الخفية غير الواعية) التي يحاول فيها واضعه القفز من فوق ظله : «فهوسرل» **Husserl** أرغم على الاعتراف بهذه القضية في مؤلفه «تأملات ديكارتية » ؛ وفي رأيه ايضاً ان الفكر مكوّن العالم ، ولما لم يكن هناك اي سبب ليكون « الأنا » **l'ego** المتعالي مضاعفاً في ذاتيات مختلفة ومنسوخاً نسخاً متعددة ، لذلك يضيف هوسرل قائلاً بتواضع وخضوع (ص٥٧): « ان ظاهرة المثالية الذاتية الفردانية **Solipsisme** قد بُددت ونفيت ،رغم انه يظل صحيحاً كون كل ما هو موجود بالنسبة الي، لا يمكن ان يستمد معناه الوجودي الا مني ، في نطاق وعيي انا . »

سار سارتر ، مثل الآخرين ، على حافة هذه الهوة المثالية الذاتية الفردانية . فبعد ان اعلن، عام ١٩٣٧ ،(في كتابه : ابحاث فلسفية،

الجزء السادس) اعلن «الأنا مُعاصِر العالم **le moi contemporain du monde** » اضاف مفسراً « ان العالم لم يخلق الأنا ، والأنا لم يخلق العالم ، انهما موضوعان بالنسبة للوعي المطلق غير الشخصي ، وانما نجدهما به مترابطين ، وهذا الوعي المطلق ، لا يعدو ان يكون شرطاً اول ، ومنبعاً مطلقاً للوجود . »

وكان سارتر مُرغماً في كتابه « الكينونة والعدم » **l'être et le néant** على الاعتراف بانه يستحيل عليه ، من وجهة النظر هذه ، انقاذ المثالية من الوقوع في الذاتية الفردانية . وهو يعترف بان موقفه عام ١٩٣٧ « لا يدفع ، ولو خطوة واحدة الى الامام ، في طريق الحل ، قضيةَ وجود الآخرين . » (ص ٢٩٠)

وهذا ايضاً بالضبط هو شأن موضوعته في « الكينونة والعدم » حين يؤكد (ص ١٣) «أن نظريتنا عن الظاهرة **phénomène** قد أحلت محلّ واقع الشيء موضوعيةَ الظاهرة ، و... أسست هذه على اللجوء الى اللانهاية . » بيد أن اللجوء الى اللانهاية ــ كما يقال لنا في الصفحة ذاتها ــ « انما هو مؤسس على علاقة تظاهرات الموجود **«manifestation»** « بذات هي في حالة تغير مستديم » .

فالذات هي اذن ضرورية لموضوعية الظاهرة ، وهكذا ترانا نعود الى الفكرة المركزية التي تدور حولها الفلسفة المثالية ، ونعود ايضاً للسقوط في شَرَك الذاتية الفردانية (١) ، ولا يمكن النجاة من هذه الا باللجوء الى اللاهوت .

---

(١) سوف نبين هذه الفكرة ونقيم الادلة عليها بصورة اكثر تفصيلاً في القسم الرابع من هذا المؤلف عند تحليل «علم ظواهر الادراك الحسي» عند موريس ميرلو بونتي .

وكان لبركلي مزية فهم هذا الموقف، والتعبير عنه بصراحة ، فهو حين رأى أن مقدمات الفلسفة المثالية كانت تقود الى الجنون المثالي الفرداني ، بحث عـــن وسيلة أخرى للخروج من ذاته . وهو في مؤلفه «محاورات هيلاس وفيلونوس » (١٧١٣) يدل على هذا المخرج: « أنا أؤكد ، مثلكم (يقصد الماديين) أنه اذا كان شيء يفعل فينا من الخارج ، فعلينا التسليم بوجود قوى موجودة في الخارج ، قوى تابعة لكائن مختلف عنا . والذي يفصل بيننا ، انا وأنتم ، هو مسألة معرفة ما هي مرتبة هذا الكائن القادر . فأنا أؤكد انـــه الروح ، وانتم تؤكدون أنه المادة . »

فلنتوقف عند هذه اللحظة الحاسمة من لحظات الفكر المثـالي ، فالمثالية الفردانيـــة تسجن الفيلسوف داخل نطاق وعيـــه الخاص ، ضمن احساسه وفكرته وفعـــله ، كدودة القز في شرنقتها التي نسجتها بنفسها . وللخروج من هذا النطاق، يجب اكتشاف شيء آخر ، ما وراء الاحساس ، والفكرة ، والفعل . فان لم يكن هذا الشيء الآخر هو المادة ، فهو الله !..

ولقد رأى بركلي بوضوح كلي أنه اذا لم تكن الطبيعة مشتقة من شيء آخر ــ من الذهن البشري مع أحاسيسه ، ثم من الروح الالهي الذي يقدم للذهن البشري محتواه ــ واذا كانت الطبيعة تكفي ذاتها بذاتها ، فان فرضية وجود الله تغدو غير مجدية . وبركلي يقول: « ان وجود المادة كان المرتكز الاساسي للملحدين» . وبسبب ، من أنه اختار منذ البداية الدفاع عن الدين ، اخذ يحارب المادية .

فهو يجهد — اذن — أكبر الجهد ليجعل من الطبيعة الفيزيائية شيئا مشتقاً : وهي في نظره ، مجموع منظم من الاحاسيس ، وهذه الأحاسيس ونظامها ليس مصدرهما الانسان ، ولا مصدرهما اية طبيعة خارجة عنه ، وانما يفسران بفعل الالوهية في الذهن البشري . فالأحاسيس ليست الا رسائل ورموزاً ولغة يخاطبنا بها الله . .

وهكذا استعادت الفلسفة المثالية مهمة فلسفة العصور الوسطى ، التي كانت تفاخر بأنها « خادم اللاهوت» **ancilla thélogiae**

ان الفلسفة المثالية ، كائناً ما كان شكلها ، لا يمكن ان تنجو من هذه المشكلة التي ليس لها الا احد حلين : فاما المثالية الذاتية الفردية واما اللاهوت . ويلاحظ السيد لوسين ، بحق ، في كتابه « مدخل الى الفلسفة » أن التأكيد القائل بأن ليس ثمة شيء يوجد الا في الذهن وبالذهن ، يفضي الى تأكيد آخر يقول بان كل شيء محمول من قبل ذهن أوّل مركزي وكونيّ شامل ، وهو اصل لكل ما هو موجود ، ولكل ما سوف يكون.»

ومن الاب المحترم مالبرانش **Malebranche** القائل بأن تطبيق الفكر على الرياضيات هو التطبيق الاكمل للفكر على الله، الى السيد برانشفيغ **Brunshwicg** الذي جاهر معلناً بأن « حقيقة الفلسفة الروحانية هي حقيقة الدين ذاتها(١) » ، مروراً بهيغل الذي كان يدمج « في فلسفة الدين » محتوى الدين ومحتوى الفلسفة ، بما أن الدين — في نظر هيغل — كان ينم برموزه عن المحتوى العقلي للفلسفة،

(١) « النزاع حول الالحاد » نشرة الجمعية الفرنسية للفلسفة ، ١٩٢٨ .

وبما ان تطور الواقع والفكر نفسه يعبر بتناقضاته عن «غضب الله»، فعند جميع المثاليين نرى اللجوء الى الله ضرورياً للانتقال من وعيي أنا، الى الوعي، من الذاتي الى المتعالي: « اذا كان للوحدة الروحية جوهر هو علاقة بين الباطن والظاهر، يجب ان ينتج عن هذا كون الذهن واحداً ومتعدداً؛ او بتعابير اخرى، يجب ان يكون باستطاعتنا التفكير به عــلى أنه... اتحاد الله والضمائر المتعينة(١). »

والسيد لافيل يسلك الطريق نفسها: فهو يقول ان الفيلسوف يرقى الى منابع كلّ ما هو موجود. بيد أنّ لهذه المنابع كلها طابعاً أسرارياً مقدساً... ذلك لان ثمة في هــذه المنابع جوهر الارادة الالهية الداخلي الخاص، وجوهر ارادتي الخاصة (٢). »

إما المثالية الذاتية، وإما اللاهوت. لقد حكمت الفلسفة المثالية على نفسها بالانطلاق في احدى هاتين الوجهتين، وهــاتين الوجهتين وحسب، منذ أن قطعت صلتها بتلك « الواقعية الساذجة » المتضمّنة في كلّ مناحي النشاط العملي اليومي الذي يقوم به الانسان، وفي كلّ تجربة علمية.

لست بالنسبة لطبيب العيــون الذي يصحح لي « احاسيسي » البصرية، ويحسنها، محبوساً داخل جدران أحاسيسي. فهذه، على العكس، صلة تصلني بالعالم الخارجي، والذي تعطيني عنه صورة صحيحة دقيقة، الى حد ما، وتقريبية. فليس هذا الاحساس ـ اذن ـ نسيج كل واقع،

---

(١) لوسين، المدخل الى الفلسفة، ١٩٤٩ ص ٢٥٥.

(٢) لافيل، في الفعل ص ٩.

وانما هو حلقة من مجموع لا يمكن فهمه، ولا يمكن أن يكون لنا
معرفة ذهنية، الا بالابتداء من الاشياء المادية. فهذه تؤثر في حواسي
الخاصة، بدورها، بوساطة الشبكية والاعصاب،
الدماغي. ودماغي ينسق أحاسيسي المتباينة ويلائم بينها، كما ينسق
من ردود الافعال الجسمية التي أردّ بها على المحرضات الخارجية،
بدرجات تتفاوت صحتها.

ولا يقتصر هذا على طبيب العيون، وانما يشمل كل
عالم، كائناً من كان، يؤمن «بسذاجة» — على الاقل اثناء تفكيره
في تجاربه — بأن الشيء المادي يمكن ان يوجد مستقلاً عن صورته،
وليس الصورة مستقلة عن موضوعها المادي، سواء أكان مدركاً
ادراكاً حسياً، أو متذكراً. والعلوم تضع نصب عينيها
مهمة تلتزمها، وهي أن ترسم لنا لوحة صحيحة دقيقة قدر المستطاع، عن
الطبيعة الخارجية. كان بول لانجفان(١) Langevin يصرح: «انني
اعتقد بأنه من الصعب أن يكون الانسان عالماً فيزيائياً تجريبياً،
دون أن يؤمن بالواقع، ليس فقط واقع وجود علماء الفيزياء الآخرين،
وانما ايضاً واقع العالم. فلو اعتبر كل تأكيد يختص بواقع العالم
الخارجي تأكيداً خالياً من المعنى ... اذا تحدثوا عن «ذاتيات
متبادلة» فانني اعترف برؤيتي حق الرؤية ذاتيات، ولكنني لا أرى
كيف يمكن الحديث عن «ذاتيات متبادلة» ذلك لان كلاً منا

---

(١) بول لانجفان. تقرير حزيران ١٩٣٨ الى «الاتحاد العالمي للعلوم الطبيعية» نشر في «النظريات الحديثة للعلوم الطبيعية» المعهد العالمي العالي للتعاون الفكري، باريس ١٩٣٩ ص ٢٣٦.

يكون عندئذ محصوراً في دور يمثله، هو دور « الذات » ،بما انه ليس ثمة واقع خارجي يحدونا الى أن نفعل فيه » .

ان هذا اليقين الذي لا يمكن دحضه ، « والساذج » في الوقت نفسه ، والذي نجده في قاعدة الحياة العملية لكل انسان ، كما هو قاعدة لكل عمل علمي ، هذا اليقين هو تعريف المادية نفسه : ان الاشياء موجودة خارج وعينا، وبصورة مستقلة عنه؛ وهو ايضاً تعريف المادة : المادة هي ما يُحدث الاحاسيس بفعله في حواسنا .

تهكم ديدرو **Diderot** في كتابه « حديث مع دالمبير » تهكماً بارعاً بالوهم المثالي، فقال: « ان حواسنا هي كمفاتيح البيانو التي تلامسها الطبيعة ، فيجيب دماغنا ... وحدثت ثمة لحظة من النشوة الهاذية ، حسب أثناءها البيانو الحساس انه البيانو الوحيد الموجود في العالم، وأن الحان الكون المنسجمة المتناغمة كلها تحدث فيه (١) !...

وهذا اليقين البالغ هذه الدرجة من الوضوح ، والقائل بأن العالم المادي **le monde motériel** موجود خارج وعينا، وبصورة مستقلة عن هذا الوعي ، لاح لبعض الاذهان أن الاكتشافات العلمية التي حدثت في أواخر القرن التاسع عشر ، وفي مستهل القرن العشرين ، قد زعزعته .

والواقع أن المفهوم الذي ارتضاه حتى ذلك الوقت الفيزيائيون ، بدرجة تختلف صراحة وضمنيـــة ، كان مادياً وآلياً ، في وقت معاً .

كان مادياً، لانهم كانوا يعتبرون المادة واقعاً موضوعياً موجوداً

---

(١) ديدرو ـــ المؤلفات ـــ منشورات آسيزا(١٨) الجزء ٢ ص ١١٨ ،

خارج ذهننا. وكان آلياً، ذلك لانهم كانوا يعتبرون الظاهرات الطبيعية ناتجة، في آخر تحليل، عن انتقال لكتل بدئية أولية **élémentaires**، غير قابلة للتغير، في المكان الاقليدي.

وهذه السُنّة التي تمثل المادة بوصفها مجموعاً من الجزيئات غير القابلة للابادة، ومن الجواهر، غير القابلة للتغير، انما ترقى الى ديموقريطس وابيقور، والى نهاية القرن التاسع عشر ايضاً؛ ورغم أن العلماء أمثال تومسون **Thomson** وروذرفورد **Rutherford** ولورانز **Lorenz** قد خابت آمالهم بسبب الذرة التي تفجرت بين أيديهم، ولكنهم عزوا أنفسهم بالكهرب، ظانين أنهم يجدون فيه الجزيء النهائي، والكرة الكثيفة التي لا يحدث في داخلها شيء، والقابلة فقط لتغيرات في المكان، هي تغيرات معينة وفقاً لقوانين الحتمية اللابلاسية

وكان هذا المفهوم الآلي نفسه ينسب الى جميع حركات الكون الخصائص نفسها التي تتمتع بها القذائف، او رقاصات الساعة، أو الامواج الصوتية؛ ومن وجهة النظر هذه، كان العالم يتمثل في الاذهان مؤلفاً من عنصرين متميز أحدهما عن الآخر: المكان، والكتل التي هي في حركة. بيد أنه كان من الواجب، على الرغم من ذلك، منح الكتل «قوى»، لاستكمال التفسير الآلي للظواهر، وكان ذلك عمل «نيوتن **Newoton**». وأحلّ نظام هرز **Herz** الآلي محل القوى، «علاقات» بين الكتل، ولكن من البدهي أن منطق المفهوم الآلي عن العالم يتطلب، بالحاح، علاوة

على ذلك ، التفسيرَ الآلي للقوى ، و« العلاقات » ؛ ومن هنا نشأ المفهوم الفرضي للاثير ، ومعه مهـــامه المختلفة : انتشار الضوء ؛ والجاذبية ؛ والمغناطيسية الكهربائية . الخ...

وكان الفيزيائي الآلي يحسب ، بالاضافة الى ذلك ، أن التصوّر الآلي الذي يكوّنه في ذهنه عن المادة ، وعن الحركة ، كان صحيحاً على الاطلاق، مماثلا تماماً للنموذج الموضوعي، وأنه تاريخياً نهائي كوني شامل ، يعني يمكن تطبيقه على الكواكب المتناهية في العظم ، وعلى الذرات المتناهية في الدقـــة ، على السرعات القريبة من سرعة الضوء ، كما ينطبق على سرعة كرة البليار(١) .

ولكن ما لبث المفهوم الآلي في الفيزياء أن تلقى، فجأة وبصورة سريعة ، في بضع سنوات ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ومستهلّ القرن العشرين ، سلسلةً من الضربات العنيفة المرهقة .

وكانت تلك ، في الدرجة الاولى ، هي التجارب التي أجريت على انتشار الضوء في الامكنة التي هي في حركة ، وخصوصاً تجربة ميشلسون Michelson التي أثبتت أنه اذا كان الاثير موجوداً، فأقلّ ما يُقال فيه أنه ينقصه احـــدى الخصائص الجوهرية اللازمة لجميع الامكنة الآلية : فقد كان مستحيــلًا تعيين حركة الاجسام بالنسبة الى هذا المكان . وهكذا انهارت قاعدة جميع الافتراضات

«١» مثال ذلك: حوالي عام ١٨٧٠ كان احد علماء الحرارية الدينامية، تندال Tyndall يقول لتلامذته : « تصوروا هـــذه الذرات المهتزة ، وتمثلوا في اذهانكم أن ذبذباتها المنتقلة الى الاثير حيث تسبح ، قد بثت في شكل أمواج ... ان هذه الامواج تنفذ الى البؤبؤ ، وتجتاز كرة العين وتتكسر على الشبكية . هذه الصدمة « وتذكروا هذا جيداً » هي واقعية وآلية تماماً مثلما هي واقعية وآلية صدمة أمواج البحر للشاطىء . »

النازعة الى التفسير الآلي للعالم ، **les hypothèses mécanistes**
وفقدت نظرة نيوتن الدينامية آليتها الكامنة فيها .

وأصيبت النزعة الآلية بكارثة ثانية : فقد أُثبت خطأ مسلمتها **son postulat** القائلة بالديمومة المطلقة للحركة والعمل ، التي أعتُبرت حتى ذلك العهد مبدأ لا يمس من مباديء الظاهرات الآلية ، سواء في المقياس المجهري (الميكروسكوبي) أو في نطاق أوسع: يعني في مقياس المرئيّات . وحين أقام بلانك **Planck** البرهان على أن التبادل بين الطاقة وبين حركة الدفع **impulsion** انما هو تبادل ذو طبيعة متقطعة وذو صفة (كوانتية) **quantique** ، فكان في هذا البرهان ، الانهيار النهائي للفرضية التي تنسب الى الظاهرات المجهرية طبيعة آلية .

واكتملت هزيمة النظرة الآلية باكتشاف ثالث هو اكتشاف الكهارب ، والبنية المركبة للذرّة ، وانحلالها الاشعاعي . وبدت الذرة ، تلك القلعة التي اشتهرت بأنها لا تؤخذ ، ولا يمكن تهديمها ، كأنها تتبخر كهرباء .

وجاء البرهان التجريبي من اختلاف الكتل الاولية بعضها عن بعض ، ومن واقع كونها معلقة على سرعة الحركة . فالكتلة وهي تُحقق المادة الجسمية في المفهوم الآلي عن العالم قد فقدت بذلك وجودها الجوهري المادي .

واستخلص نفر معين من علماء الطبيعيات ، والفلاسفة ، من

هذه الاكتشافات التي فتحت لعلم الفيزياء عالما جديداً والتي قدر لها بعد قليل أن تضاعف مئة مرة قدرة الانسان على الطبيعة ، براهين عجيبة ضد قيمة العلم وضد الصفة المادية للطبيعة .

ان قوانين الآليات التي ظن انها مرتكزة على أوطد أسس التجربة المحسوسة ، تركت ، منذ ذلك الوقت ، بوصفها أوهاماً خاسرة . وكان يُرى أن الابنية التي يقول بها علمنا ، وهي الذرات ، انما هي — بالاحرى — ، وفي أبعد تقدير ، طرق مناسبة للتعبير عن فكرنا ، وأنها اصطلاحات ، واستعارات مجازية موفقة ، ولكنها لا تتضمن من الحقيقة الواقعية الا ما تتضمن أسطورة ذلك الفيل المقدس الذي كان يعتقد قدماء الهندوكيين بأنه يحمل على ظهره العالم . وكان ثمة من يفكر بأن العلم بكامله انما هو مبتدع من مبتدعات الفكر البشري .

وقد عبر « ادينغتون » **Eddington** عن هذا الفرض ، بكل منطقه : « ليس ثمة ، في منظومة قوانين علم الطبيعة كلها شيء واحد لا يمكن استنتاجه بوضوح من اعتبارات نظرية المعرفة الشاملة المطلقة وتأملاتها . والدماغ الذي يكون غير عالم بكوننا ، ولكنه يعرف نظام التفكير الذي يفسر بوساطته العقل البشري تجربته الحاسية **sensorielle** ، يكون بمقدوره أن يبلغ جميع معارف علم الطبيعة المحصلة من طريق التجربة... وفي النهاية أقول ان ما ندركه عن الكون هو تماماً ، وبصورة صحيحة دقيقة ، الشيء نفسه الذي نضيفه الى الكون ليصبح مفهوماً (١) » .

(١) النظرية النسبية في البروتونات والكهارب «كامبردج، ١٩٣٦» ص٣٢٧-٣٢٨.

وعبر ادينغتون ، بتمديده مثالية نظرية المعرفة وجعلها تشمل علم الكائنات (الاونتولوجيا) ، في آخر جملة من كتابه عن أمله في « ان يعرف في السنوات القريبة القادمة ما كان خبيئاً في النواة الذرية ، رغم ما ينشأ في اذهاننا من ظن بأن هذا قد خُبّيء من قِبلنا(١) . »

هذه هي آخر كلة من كلات «المثالية في علم الطبيعيات» وهي لم تكتف بأن تستخلص مما كان يسميه هنري بوانكاريه **Henri Poincaré** في كتابه « قيمة العلم» «اندحار المبادىء » ، لم تكتف بالاستنتاج بأن هذه المبادىء ليست صور الاشياء الخارجية في ضمير الانسان ، وانما هي منتجات ضمير الانسان ، ولكنها شككت ايضاً في وجود العالم الخارجي نفسه . وعلى اثر انحلال الجزيئات المادية التي كان يظن سابقاً بانها غير قابلة للتجزيء ، واكتشاف اشكال جديدة كانت مجهولة من قبل ، للحركة المادية ، جاء من يحاول تصوّر الحركة دون مادة .

لقد ماتت المادية !... هكذا اعلن في تسرع . فأين هي المادة الآن ؟ فالذرة ، هذا « الجوهر المادي » الذي لا يمكن ابادته ، يتبخر كهرباء . فأين هي كتلة الكهرب ؟ انها تتلاشى اذا دنا الكهرب من الهدأة ، وحين يتحرك تصبح منحلة في شكل حقل مغناطيسي ، في كل المدى المحيط بها . أيكون لهـا ايضاً جسم ؟! وكتلتها ، هذا التعبير الرياضي عن الجوهر المادي ، أهي ايضاً دائمة غير قابلة للتغير ؟ لا . اذن : فالمادة تتلاشى وتزول . والواقع كله يتطاير دخاناً جبرياً (٢) ، ولا يبقى الا المعادلات التي حصلنا عليها ، ونظل نحن منفردين ، مع مشاعرنا وأحاسيسنا وفكرنا الذي ينظمها وينسق .

(١) المرجع المذكور — ص ٣٢٩ .

(٢) نسبة الى علم الجبر .

بينها .

على هذا النحو كان سير فكر المثالية في علوم الطبيعيات . « وكان ذلك هو العهد الذي شهد قول أوزوالد Oswald : « ان العصا التي تضرب سكابان(١) لا تنهض دليلا على وجود العالم الخارجي . هذه العصا ليست موجودة ، وليس موجوداً الا طاقتها الحركية son énergie cinetique . وكان كارل بيرسون K. Pearson يقول ايضاً (٢) : المادة هي اللامادي الذي هو في حركة (٣) « Matter is nom-matter in motion »

لم يتحدث جميع علماء الطبيعيات بمثل هذه الخفة عن « تلاشي المادة وزوالها . » فبول لانجفان قد لفت الانتباه ، بادي بدء ، في التقرير الذي قدّمه عام ١٩٠٤ الى مؤتمر سان لويس في موضوع « فيزياء الكهارب » ، الى عملية التحقيق التجريبي للتثبت من صحة موضوعية وجود الكهرب ، وهذا الاعتراف بأولية عالم موجود موضوعياً خاضع لقوانين موضوعية ، والاعتراف بالامكان غير المحدود لمعرفته ، كونا ، في جميع مراحل حياة لانجفان العلمية قاعدة المفاهيم الفلسفية العامة التي نادى بها .

وهو يعيد الى ازمة علم الطبيعيات هذه ، التي لم تكن في الواقع الا ازمة نمو ، مقاييسها الصحيحة ،

---

١ — سكابان Scapin . احد ابطال موليير الهزليين . « انظر (Molière Les fourberies de Scapin

٢ — باشلار Bachelard — الروح العلمي الجديد ، « باريس — ألكان — ١٩٣٧ » ص ٦٣ .

٣ — بالانكليزية في الاصل .

ولقد كتب يقول (١) : أولا تعود ازمة العلم الطبيعي كلها اليوم في حقيقة اسبابها الى واقع اريد فيه تمديد الاستنتاج الى صلب الذرة تمديد النقطة المادية في الآليات العقلية .

وهو يقول ايضاً(١) انناعندما تشرع في دراسةمسألة جديدة علينا نحاول تفسير المجهول بالمعلوم واستخدام المفاهيم التي نجحت في حقول جرى من قبل ارتيادها وتمثلها . » وهذه الحقول هي المرتبةالطبيعية المعتادة من مراتب الاختبار ، التي ورثناها عن أسلافنا ، انها المرتبة العينية التي أقيمت عليها جميع المفاهيم الاساسية التي خدمتناحتى الآن في تفسير مشاهد العالم . »

وفي « مؤتمر الفلسفة » الذي انعقد في مدينة بولونيا **Boulogne** عام ١٩١١ ، فسّر لانجفان هذه النظرة فقال : ان ما يبدو لنا غير وثيق ، في الواقع ، انما هو تطبيق قوانين الآلية المقررة اول الامر للحركات المرئية ، على الحركات غير المرئية ، لا سيما وان هــذه القوانين لم تعد نسبياً إلا عملية تقريب اولى ، ممتازة ، لهذه الحركات المرئية .

ومضى لانجفان في تحليله الى نقطة أبعد ايضاً ، فأضاف قائلا عام ١٩٣٩ : ان القضية لم تكن تتعلق اطلاقاً بازمة في علم الطبيعيات ،

---

١ — النسبية ، منشورات هارتمان ص ٣٢

٢ — مبادىء الجسيمات والذرات . منشورات هارتمان ، ص ٢٤

او بشك في الحقيقة الواقعية الموضوعية للعالم المادي وقوانينه (الخارجية بالنسبة الى وعينا ، والمستقلة عنه) « وانما يتعلق الامر تماماً بازمة تعانيها خطتنا الآلية التي نحاول استخدامها لتمثيل حقل مستحدث جديد . » ونحن نرى بالفعل عدم كفاية المفاهيم في الحقل المجهري تلك المفاهيم التي انشئت لاستخدامها فيه وفي اثناء الاحتكاك به طوال تلك الاجيال كلها .

« فالعالم الذي نحن ازاءه هو — اذن — أغنى بما لا نهاية له ، بما كان يتصوره باسكال حين سلم بوجود تكوين واحد من اللامتناهي في الكبر حتى اللامتناهي في الصغر ، على مقياس أصغر . فيكون علينا من وجهة النظر هذه أن نجد ، في كل مكان ، المفاهيم الاوائل نفسها . ولكن الواقع أغنى من هذا بكثير : فكل مرتبة جديدة تتيح لنا التجربة النزول اليها تأتينا بحقائق جديدة ، وتتطلب منا بالحاح جهداً جديداً في البناء النظري(١) » .

لم تكن — اذن — الاكتشافات في علم الطبيعيات ، عند فجر القرن العشرين ، لتقود اطلاقاً الى اللاادرية أو الى المثالية . هناك فقط التفسير الفلسفي ، غير المشروع ، الذي يمكن ان يؤدي الى ما كان يشهّر به لانجفان ويسميه «الانحرافات الذهنية المتطوّحة٢ ». وكان لانجفان يقول « ان اصحاب مثل هذه التفسيرات اللاأدرية او المثالية عبثاً يدّعون الانتساب الى العلم الاكثر عصرية ، فليس من العلم يستمدون هذه الفكرة بل انهم يستمدونها من فلسفة عتيقة هرمة

١ — مجلة « الفكر » la Pensée عدد اول حزيران ١٩٣٩ ص ٧و٨ .

٢ — المباديء الاولية للجسيمة والذرة ، هارتمان ، ص ٣٣ .

معادية للعلم ، محاولين ادخالها مجدداً في مجرى العلم . وحين ينتسب الفلاسفة المثاليون الى هذا او ذاك من علماء الطبيعة المثاليين، فانهم لا يفعلون عندئذ اكثر من استعادة المفاهيم التي اعـاروه اياها (١) . »

وحين يؤكد الفلاسفة المثاليون ، أو يؤكد عـلماء طبيعيات يشاركونهم مفاهيمهم ، أمثال ادينغتون ، وجانس ، وجوردان ، وديراك ، وروسل ، وسواهم ، أقول حين يؤكد هؤلاء بأن نواحي التقدم الحديثة التي حققها علم الفيزياء تبرهن على عدم وجود عالم واقعي مستقل عن الفكر، وأن ارادتنا معرفة العالم الواقعي تصطدم بحدود لا يمكن اجتيازها ،وأن السببية والجبرية لا يمكن ان يُبحث عنها الا فيذهننا ، فان هؤلاء لا يكونون محرّكين من قبل منطق البحث العلمي وحده ؛ فهم يحاولون تبرير مفهوم عن العالم ، اختاروه سلفاً لاسباب غير فيزيائية .

حين رفض صديق من اصدقاء بركلي تناول أسرار التوبة والقربان المقدس قائلًا بأن ليس لطقوس المسيحية قيمة فروض العلم ،والرياضيات بصورة خاصة ، كتب أسقف كلوين **Cloyne** الغيور مؤلفاً خاصاً عن الرياضيات « ملكة العلوم » (**the Annalist 1734**) لكي يبرهن على ان الرياضيـات ترتكز على أسس غـير مستقرة ، دون ان تفقد ، بسبب ذلك ، قيمتها العملية . وقال : ان هذا نفسه يصح تماماً في طقوس المسيحية . أما « كانت » **Kant**

١ ـــ المرجع نفسه ـ ص ١٤ . في القسم الثالث من مؤلفنا ندرس مغزى المدركات العلمية بفحص تفسيرات مدرسة كوبنهاغ .

فلم يخفِ نيته في رسم الحدود للعلم ليترك مجالا للايمان .

وثمة ما يغري بتقرير وجود تماثل بين مشروعات بركلي و « كانت » وبين مشروعات «المثالية في علم الطبيعيات » .

ويبين الفيزيائي المثالي جوردان Jordan في مؤلفه « الفيزياء في القرن العشرين » ، معتزاً ، أن مفهومه عن العالم يضمن « تصفية المادية » ويؤمن للدين مدى حيوياً دون ان يدخل في منازعة مع الفكر العلمي . » (ب. جوردان ـــ الفيزياء في القرن العشرين ـــ نيويورك ١٩٤٤ ـــ ص ١٦٠) . وهو يشرح في الفصل المسمى « فلسفة العلم » : « نظراً للطبيعة المجردة للارتسامات العلمية التي لما تكتمل ، بدهي أن علوم الطبيعة لا تستطيع تكوين حكم عن المذاهب التي لها طابع غيبي خاص ، كمذهب العوامل الخارقة للطبيعة ، الفاعلة في الاحداث الطبيعية (المرجع نفسه) » .

ويعلن ادينغتون في كتابه «طبيعة العالم الفيزيائي»:« قد يكون ممكناً القول ـــ ويكون قولنا هذا نتيجة نستخرجها من هذه الحجج التي قدمها العلم الحديث ـــ بأن الدين عاد ممكن القبول ، ثانية ، بالنسبة الى ذهن علمي عاقل . »

أما برتراند رسل B. Russel ، الذي ما انفك يستخدم نظرية المعرفة كسلاح سياسي ، فيعترف ، بصورة اكثر خشونة ، بأن جميع ما كتبه العلماء في مصلحة الدين ، لم يكتبوه بوصفهم علماء ، وانما بوصفهم مواطنين روّعتهم حرب ١٩١٤ ـــ ١٩١٨ ، والثورة الروسية التي تلتها . » ولانهم أرادوا « الدفاع عن الفضيلة وعن

الحقيقة (١) ».

ونخطيء اذا اعتقدنا بأن جميع هؤلاء الذين يدعون بأن المثالية تنتج حتماً وبالضرورة عن استنتاجات العلم وطرائقه،أقول نخطيء إذا اعتقدنا بأن جميع هؤلاء يضمرون افكاراً دينية او سياسية مبيتة، ولكن من المؤكد الوثيق ، باديء بدء ، أن عدداً معيناً منهم — وإن يؤلف هذا العدد أقلية بينهم — وهذا ما بينته اعترافات جورشان ورسل ، يعون أهدافهم وعياً واضحاً .

وثمة ايضاً ما هو بدهي اكثر من هذا ، وهو أن ايديولوجية محددة انما تستخدمها بصخب ، وتنشرها القوى الاجتماعية التي تقدر بأنها تعود على قضيتها بالخير . وهذه القوى الاجتماعية نفسها تضرب نطاقاً من الصمت المطلق الشامل على كل تفسير لاستنتاجات العلوم الطبيعية يتعارض مع تلك الايديولوجية .

والمثال الاكثر دلالة في هذا الصدد انما هو المؤلف الذي كرسه لينين عام ١٩٠٩ لدحض « المثاليةالفيزيائية» وهو:« المادية ومذهب النقد التجريبي . »

يحلل لينين في هذا المؤلف تحليل معلم بارع قادر، محرك اسباب الضلال والخطأ ، في التفسيرات المثالية او اللاأدرية « لأزمة علم الطبيعيات ». وقد درس اعمال هنري بوانكاريه، ودوهيم Duhem وآبل راي A. Rey (هذا اذا اكتفينا بذكر العلماء الفرنسيين) فكشف لينين عن الخلط والتشويش الموجودين في أساس تفسيراتهم .

١ — برتراند رسل — الروح العلمية والعلم في العالم الحديث — منشورات جانين، ص ٩٧ .

وقد كتب لينين يقول : « لا يسمح اطلاقا بالخلط بين المذاهب في بنية المادة ، وبين المقولات الخاصة بنظرية المعرفة ؛ ولا يسمح باطلاقاً بالخلط بين مسألة الخصائص الجديدة للتشكلات الجديدة التي اتخذتها المادة (الكهارب ، مثلا) وبين المسألة القديمة ، مسألة نظرية المعرفة ، ومنابع معارفنا ، ووجود الحقيقة الموضوعية . (ص ١٠٢) »

« ان جوهر أزمة الفيزياء المعاصرة ينحصر في انقلاب القوانين القديمة رأساً على عقب ، وانقلاب المبادىء الاساسية ، وفي انعكاس الحقيقة الموضوعية الموجودة خارج الوعي ، يعني في احلال المثالية واللاأدرية محل المادية. (لقد تلاشت المادة) نستطيع بهذه الكلمات التعبير عن الصعوبة الاساسية — التي يمكن اعتبارها نموذجاً لسائر الصعوبات— حيال بعض المسائل الخاصة التي استثارتها تلك الازمة. هذه هي الصعوبة التي سوف نتوقف عندها الآن. ان«تلاشي المادة» ليس له أية علاقة بالتمييز — الذي تجيء به نظرية المعرفة — بين المادية والمثالية . »

« ان « تلاشي المادة » يعني أن الحد الذي وصلت اليه معرفتنا بالمادة يتلاشى ، وأن وعينا يتعمق . فثمة خصائص للمادة (كعدم قابليتها للاختراق **impénétrabilité** ، وعدم الحركة **inertie** ؛ والكتلة **masse** الخ ...) كانت تبدو لنا من قبل مطلقة ثابتة ، أولية **primordiales** ، وهي تتلاشى الآن ،وقد عرفت بأنها نسبية ، ملازمة فقط لبعض حالات المادة . ذلك أن « الخاصة » الوحيدة للمادة ، التي يحدد التسليم بها المادية الفلسفية انما

هي كونها ــ اي المادة ــ حقيقة موضوعية ، وانها موجودة خارج وعينا. ان خطأ مذهب ماخ **Mach**، بصورة عامة، والفيزياء الحديثة، هو أنها لم يأخذا بعين الاعتبار هذا الاساس للمادية الفلسفية، الذي يفصل المادية الغيبية عن المادية الديالكتيكية. ان التسليم بما لست ادريه من عناصر ثابتة مجهولة، «بالجوهر الثابت للاشياء» لا يكوّن المادية الصحيحة: وهو ليس الا مادية غيبية ، يعني مادية مناهضة للديالكتيك . »

« اذا اردنا طرح المسألة من وجهة النظر التي هي وحدها صحيحة ، يعني من وجهة النظر الديالكتيكية المادية ، ينبغي ان نتساءل : هل الكهارب ، والاثير الخ... موجودة خارج الذهن البشري ، وهل لها حقيقة موضوعية ام لا ؟ عن هذا السؤال ينبغي أن يجيب علماء التاريخ الطبيعي ــ وهم يجيبون دائماً ــ ودون تردد ، بالايجاب ، نظراً لأنهم لا يترددون بالتسليم بوجود الطبيعة وجوداً سبق وجود الانسان ووجود المادة العضوية . وهكذا تحسم المسألة لصلحة المادية ، ذلك لأن مفهوم المادة ــ كما قلنا آنفاً ــ لا يعني في نظرية المعرفة الا هذا: ان الحقيقة الموضوعية موجودة بصورة مستقلة عن الوعي الانساني الذي يعكسها . »

« تلحّ المادية الديالكتيكية ببيان الطابع التقريبي، النسبي ، لكل قضية علمية تختص ببنية المادة وخصائصها ؛ وهي تلحّ بعدم وجود خطوط فاصلة مطلقة ، في الطبيعة ، وتلحّ بانتقال المادة المتحركة من حال الى حال أخرى ، تبدو لنا أحياناً مخالفة للحال الاولى . ومهما بدا « غريباً » في نظر « الحس السليم » تحوّل الاثير غير القابل للوزن الى مادة قابلة للوزن ، وعلى العكس ؛ ومهما بدا

غريبا انعدام وجود أية كتلة ، عند الكهرب ، مـــا خلا الكتلة الكهربائية المغناطيسية، ومهما بدا غريباً عن المألوف اقتصار القوانين الآلية للحركة ،على حدود حقل ظاهرات الطبيعة وحدها ، وتبعيتها لقوانين أعمق ، هي قوانين الظاهرات الكهربائية المغناطيسية الخ... فليس من شأن هذا كله،الا ان يؤكد المادية الديالكتيكية مجدداً. لقد انحرفت الفيزياء الجديدة نحو المثالية ، والسبب الاساسي في ذلك هو أن علماء الفيزياء كانوا يجهلون الديالكتيك . لقد حاربوا المادية الغيبية (الميتافيزيقية) ــ وذلك بالمعنى الذي كان يستعمله انجلس ، وليس بمعناها المنتسب الى المذهب الوضعي son sens positiviste ، يعني المستوحى من هيوم ــ لقد حاربوا المادية الغيبية وطابعها الآلي البحت ،واطرحوا الجوهري مع الثانوي . وهم عند نفيهم ثبات خصائص المادة وعناصرها المعروفة حتى ذلك الحين ، انزلقوا الى نفي المادة ، يعني الى نفي الحقيقة الموضوعية للعـــالم الطبيعي . وهم بنفيهم الطابع المطلق للقوانين الاساسية الاكثر أهمية ، انزلقوا الى نفي كل قانون موضوعي في الطبيعة . ولقد أعلنوا ان القوانـــين الطبيعية ليست الا اصطلاحات ، وليست الا « تحديداً مؤقتاً » والا « ضرورة منطقية » الخ ... وهم بالحاحهم بالطابع التقريبي النسبي لمعارفنا ، انزلقوا الى نفي الغاية المستقلة للمعرفة ، هـــذه الغاية التي تعكسها المعرفة على نحو من الدقة التقريبية ، النسبية (١) » .

أوضح لينين القضية ايضاحاً تاماً بتمييزه بين مسألتين كان أدعياء المادية يخلطون بينهما باستمرار .

١ ــ لينين - « المادية ومذهب النقد التجريبي » ص ٢٢٢ الى ٢٢٥ .

فثمة السؤال : **ما هي المادة ؟** وعنه تجيب المادية : انها الواقع الموضوعي المستقل عن الذهن، والذي ليس بحاجة الى الذهن كي يوجد.

وثمة السؤال : **كيف هي المادة ؟** وعنه تجيب المادية : من شأن العلم أن يقدم لنا عن المادة صورة تقريبية تكتمل تدريجاً وتغدو كاملة أكثر فأكثر ...

ومسألة بنية المادة لا تختص الا بالعالم الطبيعي ولا تختلط بمسألة مصدر المعرفة، يعني علاقات هذا العالم بالوعي الذي يكونه الانسان عنه

والقول بأن قضية بنية المادة ينبغي أن لا تخلط بقضية العلاقات بين المادة والوعي ، لا يعني مطلقاً ان ثمة مدركين اثنين عن المادة: مدرك فلسفي يكون ثابتاً، ومدرك علمي مقضي عليه بالخضوع لتقلبات التاريخ.

ان دعائم المفهوم المادي عن العالم لا يمكن ان يزعزعها اي تغير في المفهوم العلمي لخصائص المادة ، وليس ذلك لأن المدرك الفلسفي عن المادة يكون دون علاقة « بمدرك علمي » مزعوم ، وانما لأن المادة لا يمكن ان تفقد هذه الخاصة الاساسية من خصائصها وهي كونها – اي المادة – حقيقة واقعية موضوعية . سقط بعض علماء الطبيعيات في اللاادرية ، لا لانهم خلطوا بين مدركين عن المادة ، وانما لأنهم خلطوا قضيتين ، ولانهم لم يكن لديهم إلا المفهوم الغيبي عن خصائص المادة وتركيبها . ان جميع العلوم تفرض الاعتراف بخاصة المادة هذه وهي خاصة تضع شروط جميع الخصائص الاخرى : ومن الناحية المقابلة ، لا تتخلى الفلسفة عن اهتمامها بالخصائص الاخرى للمادة . وكل مفهوم آخر انما يؤدي الى الفصل بين الفلسفة والعلوم (١) .

---

(١) – انظر في هذا الموضوع مقال كوزناتسوف في مجلة « أنباء اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي » سلسلة « تاريخ وفلسفة » الجزء التاسع العدد الثالث ، عام ١٩٥٢ صفحات ٢٥١ الى ٢٧٢ .

والذي حكمت ببطلانه الاكتشافات الفيزيائية في مستهل هذا القرن ، هو النزعة الآلية ، يعني مفهوماً علمياً معيناً عن بنية المادة .

والذي حكمت الاكتشافات الفيزيائية في مستهل هذا القرن ببطلانه ايضاً هو مذهب الغيبية الجامدة ، أعني موقفاً فلسفيا يعتبر الصورة التي يكوّنها الانسان عن العالم في لحظة معينة من التاريخ ، صورة لا تغير لها ، ونهائية .

والذي حكمت ببطلانه الاكتشافات الفيزيائية في مستهل القرن ، ليس هو ــ اذن ــ المادية . ويعلن لينين (١) : « من السخافة القول بأن المادية تؤكد ضرورة المفهوم الآلي او المفهوم الكهربائي ــ المغناطيسي ، أو أي مفهوم آخر عن العالم ، اكثر تعقيداً بما لا نهاية له ، من حيث هو ــ اي العالم ــ مادة في حركة . »

ويضيف لينين (٢) رافضاً ــ معاً ــ النزعة الآلية ، والمذهبية الجامدة الغيبية : «ان جوهر الاشياء او قوامها هو ايضاً نسبي ؛ فهو لا يعني الا المعرفة المعمقة التي يملكها الانسان عن الاشياء ، واذا كانت هذه المعرفة لا تذهب كثيراً الى أبعد من حدود الذرة ، ولا تتخطى اليوم الكهرب او الاثير ، فان المادية الديالكتيكية تلحّ بالطابع الانتقالي ، النسبي ، التقريبي ، لجميع هذه الصوى للمعرفة المتعاظمة ، معرفة الطبيعة بوساطة العلم البشري . الكهرب ــ شأنه شأن الذرة ــ لا يمكن استنفاده ، والطبيعة لامتناهية

---

١ ــ لينين ــ « المادية ومذهب النقد التجريبي » ــ ص ٢٤٢ .

٢ ــ المرجع نفسه . ص ٢٢٦ .

ولكنها موجودة بصورة لامتناهية. وهذا الاعتراف المطلق ، الحاسم بوجود الطبيعة خارج وعي الانسان واحاسيسه ، هو وحده الذي يميز المادية الديالكتيكية من اللاأدرية وعن المثاليـــة القائلتين بالنسبية . »

لقد دحض لينين بالطريقة نفسها سفسطات نظرية اوزوالد الطاقية (نسبة الى الطاقة : **énergétique**) . لقد اعتبرت الفيزياء تحويل الطاقة بمثابة عملية تطور موضوعية مستقلة عن ضمير الانسان وعن تجربة البشرية . يلقي لينين ضوءاً باهراً على هذه المسألة التي غالباً ما أُحيطَتْ بالظلام : « هـــل يتم تحويل الطاقة ، خارج وعيي ، مستقلاً عن الانسان ، وعن البشرية ، ام ان هذا التحويل ليس الا فكرة ، الا رمزاً ، الا اشارة اصطلاحية (١) ؟ »

والعلاقات بين الكتلة والطاقة يعبر عنها قانون العلاقة المتبادلة بين الكتلة والطاقة : ط = كس ٢ ؛ وفيه (ط) تمثل الطاقة و(ك) تمثل الكتلة و (س) سرعة الضوء .

ويسمى هـــذا القانون احياناً ، بتعبير مخالف للأصل : قانون التكافؤ **loi d'équivalence** بين الكتلة والطاقة. هذه التسمية مخالفة لما تُطلق عليه ، لأنه اذا صحّ ان كل تغـــير لطاقة جسم يستثير تغيراً في كتلته ، معيناً بدقة ، والعكس بالعكس ؛ فليس صحيحاً ان الكتلة يمكن ان تتحول الى طاقة .

لقد برهنت الطبيعيات ، خلال العشرين عاماً الاخيرة ، على أن الجسيمات الأولية يمكن ان تتحول احداها الى الاخرى . مثلاً :

---

١ — المرجع ذاته ، ص ٢٣٤ .

الكهارب ، والكهرجابيات **les positons** والميزونات **mésons** يمكن ان تتحول الى فوتونات **photons**، يعني الى كوانتات **quantas** للحقل الكهربائي المغناطيسي . ويستطيع فوتون ذو طاقة كبرى ، بدوره، ان يُحدث في حقل النواة جزيئات من المادة، وهذا يبين امكان تحويل شكلي المادة المختلفين كيفياً : الحقل والجزيء . وهذا الانتقال ، في الاتجاهين ، من الجزيء الى الحقل ، ومن الحقل الى الجزيء ، يثبت فرض الديالكتيك الذي يرى بأن ليس ثمة حد لا يمكن اجتيازه بين مختلف اشكال المادة .

ان التأويل المثالي يقوم على توحيد الحقل مع الطاقة، والحركة، وتوحيد المادة مع الكتلة . وانطلاقاً من هذه النقطة سوف يعتبر الطاقيون الجدد **néo – énergétistes** أن تحول الجزيء الى حقل، هو تحول الكتلة او المادة الى طاقة، ثم يعودون مجدداً للحديث عن تلاشي المادة او عن « اضمحلالها » . ولا يبقى بعدئذ الا خطوة واحدة ، سرعان ما تجتاز ، كي يضيف مثاليّنا مع « الشخصاني » **le personnaliste** الاميركي بريتمان : « الطاقة التي وصفها علماء الطبيعيات انما هي ارادة الله الفاعلة . »

هذه السلسلة من الاستنتاجات لا يمكن اقامة الدليل على صحتها، فيزيائياً : ان التحوّل المتبادل بين الجزيئات والحقل ليس ، بأية حال من الاحوال ، انتقالا للمادة الى الطاقة ، او الكتلة الى الطاقة وانما هو الانتقال من شكل من اشكال المادة التي هي في حركة ، الانتقال من الشكل الجزيء ، الى شكل آخر من المادة التي هي في حركة ، وهو « الشكل – الحقل » . والدليل هو

أن المادة ، حتى حين تكون في شكل الحقل ، تملك معـــاً كتلة وطاقة ؛ وذلك أثبته تجارب ليبديف **Lébédev** في قياس ضغط الضوء .

ان الاستنتاج المثالي لهو في تناقض :

اولا : مع الحدث الواقعي الفيزيائي القاضي بأن الضوء لا يملك طاقة فقط وانما يملك كتلة ايضاً .

ثانياً : مع القانون الطبيعي ، قانون تبعية الكتلة ازاء سرعة الحركة .

والاستنتاج المثالي يرتكز ، بالاضافة الى ذلك ، عـــلى الخلط الفلسفي بين مدرَكين جد متمايزين : مدرَك المادة ، بمعنى الواقع الموضوعي الموجود خـــارجاً عنا ، وبصورة مستقلة عن وعينا ، ومدرَك الكتلة ، التي هي احدى الخصائص الطبيعية للمادة .

كان لينين ، بالاستناد الى اعمال لورانز ولارمور **Larmor** ولانجفان (١) يرفض ــ اذن ــ بحق ، ان يسمي « نزع الخـــاصة المادية » من الذرة ، ما لم يكن في الحقيقة الا انتقالاً من حالة مادية الى حالة مادية اخرى .

ولقد أقامت الاكتشافات التالية جميعها ، الدليل ، على صحة وجهة النظر هذه . ومقابلة المادة بالضوء بوصفه شيئاً « غير مادي » عمل لا معنى له اليوم . « ان العالم المادي الموجود (المادة التي هي في حركة) يعرض ذاته علينـــا في شكلين أساسيين : كمادة (بالمعنى الضيق) ،

---

١ ــ لينين ـ المادية ومذهب النقد التجريبي ـ ص ٢٢٤ .

و كضوء (١) . »

اذن ليس ثمة اساس فيزيائي ذو قيمة للتفسير المثالي لعلاقات المادة بالطاقة . فالاستنتاج المثالي مرتبط فقط بمسّلمات فلسفية مثالية، دخيلة على الفيزياء . ان الحكم الذي أصدره لينين عام ١٩٠٨ على نزعة اوزوالد الطاقية، يبقى اليوم صحيحاً بكامله، بالنسبة الى الضروب الجديدة التي اتخذتها النزعة الطاقية . « ان الفيزياء الطاقية هي مصدر محاولات مثالية جديدة، لتصّور الحركة دون المادة ، اثر تفكيك جزيئات المادة التي كان يظن حتى ذلك العهد انها غير قابلة للتفكيك، واثر اكتشاف اشكال جديدة للحركة المادية لم تكن معروفة من قبل (٢). »

التفكير بالحركة دون المادة ، تلك هي في الواقع المسلّمة الفلسفية المثالية التي تؤدي الى تشويه المدلول الفيزيائي لقانون الكتلة والطاقة وعلاقاتها .

وابتداء من هذه النقطة يتابع الاستنتاج المثالي عمله في التقليل من شأن الحقيقة المادية : ونظراً لأن المادة « حُصرت » في نطاق الحركة ، فان المرحلة التالية تقوم على اعتبار الحقل ليس بمثابة شكل خاص من أشكال المادة ، وانما كخاصة من خصائص المكان ـــ الزمان **l'espace-temps** . وهكذا يتوصلون الى القول بأن الحقول

١ ـ فافيلوف Vavilov ـ العين والشمس ـ منشورات اكاديمية العلوم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ـ ١٩٥٠ ، ص ٤١ ـ وتجدر الاشارة الى ان لويس دى بروي نفسه ، وهو ميال كثيراً ، رغم ذلك ، الى التأويلات المثالية ، يعتبر الضوء « أرفع شكل من اشكال المادة. » لويس دى بروي ـــ فيزياء وفيزياء مجهرية ص ٤١ .

٢ ـــ لينين ـ المادية ومذهب النقد التجريبي ٢٢٦ ـــ ٢٣٧ .

الكهربائية ــ المغناطيسية ،وحقول الجاذبية هي منحنيات للمكان ــ الزمان ، ملقين التشويش ، على هذا النحو ، في الجهاز الرياضي ، متبجحين ربط حقائق فيزيائية بهذه الحقائق الفيزيائية نفسها . من وجهة النظر هذه، نرى أن تحول جزيئات المادة (بالمعنى الضيق) الى ضوء (يعني الى كوانتا حقل) سوف يدعى « تحويل المادة الى مكان ــ زمان » وهكذا من انزلاق الى انزلاق ، ومن تشويش الى تشويش ، يبلغ المثالي غاياته : تزييف الحقيقة المادية ، وطمسها باسم الفيزياء ...

يحدد لينين هكذا في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي » « جوهر المثالية الفيزيائية وقيمتها » : « ان الفكرة الاساسية التي تدرسها المدرسة الجديدة للفيزياء ، هي نفي الحقيقة الموضوعية المعطاة في الأحاسيس ،والتي تعكسها نظرياتنا ، او الشك في وجود هــذه الحقيقة . » (ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥)

«مصدر ازمة علم الطبيعيات المعاصر هو انه كفّ عن الاعتراف بصراحــة ، ووضوح ، وتصميم ، بالقيمــة الموضوعية لنظرياته . » (ص ٢٦٧) . تلك هي العلة الأولى للمثالية«الفيزيائية». ان المحاولات الرجعية تولد من تقدم العلم نفسه . والتقدم العظيم في علم الطبيعة ، واكتشاف العناصر المتجانسة ،والبسيطة للمادة التي يمكن التعبير عن قوانين حركتها تعبيراً رياضياً، تحدو الرياضيين الى نسيان المادة . « ان المادة تختفي » ، ولا يبقى ثمة الا معادلات . ويلوح أن هذه المرتبة الجديدة من مراتب النمو تعود بنــا الى الفكرة الكانتية القديمة : ان العقل يملي قوانينه على الطبيعة . » (ص ٢٦٨

« وعلة اخرى من علل المثالية « الفيزيائية » هي مبدأ النسبية ،

نسبية معرفتنا ، وهو مبدأ يفرض ذاته بقوة على علماء الطبيعيات ، خاصة في هذا العهد،الذي هو عهد انقلاب النظريات العتيقة رأساً على عقب ، وهو ــ اي هذا المبدأ ــ **اذا اضيف الى الجهل بالديالكتيك،** يؤدي حتماً الى المثالية . »(ص ٢٦٩) « ان جميع حقائق الطبيعيات السابقة ، بما فيها الحقائق التي اعتبرت ثابتة لا تحول لها ، ولا يرقى اليها الشك ، قد انكشفت عن كونها نسبية ، فلا يمكن ـ اذن ـ أن يكون ثمة حقيقة موضوعية مستقلة عـــن البشرية . تلك هي فكرة ... المثالية « الفيزيائية » كلها . أن تنتج الحقيقة المطلقة من مجموع حقائق نسبية سائرة في طريق النمو ، وان تكون الحقائق النسبية صوراً صحيحة نسبياً عن شيء مستقل عن البشرية ، وان تغدو هـــذه الحقائق مضبوطة اكثر فاكثر ، وان تحوي كل حقيقة علمية على رغم نسبيتها ، عنصراً من عناصر الحقيقة المطلقة ، ان جميع هذه القضايا البدهية بالنسبة الى كل من قرأ ، متمعناً ، كتاب « الأنتي ــ دوهرنغ » لانجلس ، انما هي كلام معمى مبهم ، اذا قيست بالنظرية « المعاصرة » في المعرفة . » (ص ٢٦٩ــ٢٧٠) .

« وبكلمة واحدة نقول ان المثالية « الفيزيائية » الحاليّة شأنهـا شأن المثالية « الفيزيولوجية » بالأمس ، تعني ، ببساطة ، ان فئة من العلماء قد سقطت في الفلسفة الرجعية ، لأنها لم تستطع الرقي مباشرة، دفعة واحدة ، من المادية الغيبية ، الى المادية الديالكتيكية . هذه الخطوة تقوم بها الفيزياء المعاصرة وسوف تقوم بها مستقبلاً ... ان علم الطبيعيات المعاصر هو في حالة مخاض . انه يتمخض بالمــادية الديالكتيكية . » (ص ٢٧٣)

لا تستطيع المثالية الزعم بكونهـــا نظرية المعرفة المؤسسة على العلوم الطبيعية . ان علم الطبيعيات يعلمنا ، على العكس :

اولا : بأن ليس ثمة « اختفاء » للمادة ، ذلك لان وجود الشيء l'objet وخصائصه ليس متعلقاً بالذات .

ثانياً : أن نظرياتنا العلمية هي انعكاس لهذه الحقيقة الموضوعية .

ثالثاً : ان هذا الانعكاس هو تقريبي ، ولكن هــذا التقريب يمضي ، مـن نظرية الى نظرية ، نحو الدقـة ، اكثر فأكثر .

ثانياً : ان المادة هي الواقع الاول الذي ليست احاسيسنا ، وليس فكرنا ، الا نتاجاً له وانعكاساً عنه .

« ان المسألة الاساسية الكبرى في كل فلسفة ، والفلسفة الحديثة بخاصة ، هي مسألة العلاقة بين الفكر والكائن ... وكان الفلاسفة ، تبعاً لاجاباتهم عن هذه المسألة ، ينقسمون الى معسكرين كبيرين : اولئك الذين يؤكدون تقدم العقل على الطبيعة ، فيقرون هكذا ، عند آخر تحليل ، بخلق العالم ، كائناً ما كان نوع ذلك الخلق ... وهؤلاء يؤلفون معسكر المثالية . والآخرون الذين كانوا يقررون تقدم الطبيعة ، وينتمون الى مختلف مدارس المادية (١). »

على هذا النحو يعرّف انجلس المثالية والمادية .

ويقول ماركس : « ان حركة الفكر ، هــذا الفكر الذي يشخصه هيغل ويطلق عليه اسم « الفكرة » ، هي في نظره خالق الواقع وصانعه ، فما الواقع الا الشكل الحادثي للفكرة . اما في نظري ، فعلى العكس ، ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة

---

١ — انجلس - لودفيغ فورباخ - ص ٢١ _ ٢٢ .

الواقعية ، منقولة الى دماغ الانسان ومستقرة فيه (١). »

وهنا ايضاً تسمح لنا العلوم بحسم النزاع بين المثالية والمادية. هل الاشياء هي انعكاسات عن الفكر ام ان الفكر هو انعكاس عن الاشياء ؟

ولنلاحظ ، بادىء بدء ، أن المادية لا تنفي مطلقاً وجود العقل. ان الفكر موجود ، والمادة موجودة . والقضية ليست قضية « رد » الفكر الى المادة ، وانما التدليل على ان المادة هي الواقع الاول ، وان العقل هو المعطى الثاني .

ان المادية المبتذلة ، يعني الآلية ، ترتكب هذا التشويش . فقد كان فوغت **Vogt** يقول « ان علاقة الفكر بالدماغ هي مثل علاقة الصفراء بالكبد او علاقة البول بالكلوة . » وصيغة افراز الفكر هذه من قبل الدماغ على مثل السخافة الخالصة، وعلى مثل الابهام اللذين تحويهما صيغة هيغل عن « التخلي عن الجوهر » **l'aliénation** «التخلي عن» الفكرة التي من شأنها في زعمه أن تحمل في ذاتها الطبيعة ؛ او مثل الصيغة اللاهوتية القائلة بخلق العالم من قبل الروح العليا .

وفي الحالتين، حالة المثالية واللاهوت، أو حالة المادية الآلية - يجعلون علاقات الفكر بالمادة غير مفهومة ، وبتعارض متناظر مع مثالية تزعم استخراج المادة من الفكر ، تقصر المادية المبتذلة الفكر ، على ظاهراته الآلية ، من طبيعية ووظفية ؛ او أنها لا تجعل من الفكر الا « ظاهرة مستطرقة » **épiphénomène** يعني ، ثانوية .

---

١ - ماركس - رأس المال - مقدمة الطبعة الثانية - ٢٤ كانون الثاني ١٨٧٢ «طبعة موليتور - ج ١ - ص ٩٥ .

لقد فضح لينين، بقوة، السخافة الآلية: «أن يكون الفكر والمادة حقيقيين — هذا صحيح . ولكن نعت الفكر بالمادية يعني قيامنا بخطوة خاطئة نحو الخلط بين المادية والمثالية (١). »

ان المادة والفكر يتميزان احـدهما على الآخر، من حيث الكيف ؛ ولذا كان من غير الممكن قصر احدهما على الآخر . ان الفكرة عن موضوع ما ، تتميز عن موضوع الفكر . ولكن هذا التعارض ليس مطلقاً ، كما هو مثلاً عند ديكارت . وواضح اننا اذا عرّفنا المادة بالمكان ، كما يفعل ديكارت ، فان علاقات هذه المادة بالفكر تصبح غير ممكنة الفهم . وهذه الصعوبة هي الصعوبة التي يلاقيها جميع القائلين بالمذهب الآلي .

سوف تكون مهمة النظرية المادية للمعرفة التدليل على ان الفكر منبثق من المادة ،ولكنه ليس بحال من الاحوال مماثلاً لها ، اي أنه ليس هي بعينها .

اما الآن فالأمر يختص بالتدقيق في تعريف المادية . حين تعلن المادية ان المادة هي الواقع الاول ، وأن الفكر هو الواقع الثاني ، فهذا يعني شيئين :

اولا : لا يستطيع الفكر ان يوجد دون موضوع خـارجي عنه: هو الطبيعة.

ثانياً : لا يستطيع الفكر ان يوجد دون شروطه المادية : دماغ الانسان .

اما كون العالم الخارجي يوجد بصورة مستقلة عن وعي الانسان، فقد

---

١ — لينين - « المادية ومذهب النقد التجريبي » .

دللنا عليه عندما أثبتنا التعريف المادي للمادة . ويكفي هنا أن نبين مرمى هذا التعريف فيما له علاقة بنظرية المعرفة: سوف تكون النظرية المادية في المعرفة نظرية الانعكاس . وسوف تكون مهمتها ان تبين كيف أن الواقع الموضوعي ينعكس في وعي الانسان انطلاقاً من هذا المبدأ : ان ما هو منعكس (الشيء) يستطيع ان يوجد بصورة مستقلة عما يعكس (يعني الوعي) ولكنها تبين ان هذا الوعي لا يستطيع ان يوجد بصورة مستقلة عما هو منعكس (الشيء او الموضوع **l'objet**) . يقول لينين : « ان المادة هي ما يُنتج الاحساس ، بفعله في حواسنا. ان المادة هي الواقع الموضوعي الذي يعطى لنا في الاحساس . »

ليس ثمة أبداً اي حاجز مطلق بين الطرفين النهائيين لحركة سير المعرفة : المادة والفكر . وهنا يتخذ الوجه الثاني من المفهوم المادي عن تقدم المادة على الوعي ، كل معناه : وهنا ايضاً نرى العلوم الطبيعية هي التي تبين لنا أن الفكر قد ظهر بعد المادة . ان المادة العضوية هي ظاهرة متأخرة ، ونتاج تطور طويل سيكون علينا ان نرسم مراحله . وحتى بعد تكوّن المواد العضوية على الارض ، لزم آلاف آلاف السنين كي تولد اشكال عليا من المادة الحية، متمتعة بالحساسية . ان الوعي والفكر نتاجان لتطور اكثر تقدماً في الزمن ايضاً .

اذن لقد وُجدت المادة قبل الوعي. ونشأ هذا عند مرحلة معينة من نمو المادة ، في شروط سوف يكون علينا تحديدها .

وما يعلمنا علم الحياة هو ان الوعي ليس ممكناً الا عند كائنات حية ، ذات جهاز عصبي مركب ممركز

وليس ثمة فكر ممكن، بدون دماغ. ان الدماغ هو عضو التفكير. ولكن الفكر ليس فقط نتاج النشاط الوظيفي للدماغ. فالفكر عند الانسان هو نتاج النشاط الاجتماعي ايضاً. ان الدماغ هو القوام المادي الضروري، عضو التفكير، ولكن وظيفة التفكير تصاغ في الحياة الاجتماعية. وسوف يكون علينا تسجيل مراحل تكوّن هذا الفكر، ابتداء من النمو التاريخي للمادة، وان نبين كيف ان الفكر هو النتاج الأعلى للمادة.

تعلمنا العلوم أن الانسان ظهر على وجه الارض في زمن متأخر جداً، وكذلك الفكر معه. ولكي نؤكد ان «الـ» فكر كان موجوداً متقدماً على الارض، على المادة، يجب ـــ اذن ـــ التأكيد بان هذا الفكر لم يكن فكر الانسان. ان المثاليـــة، في جميع اشكالها لا تستطيع ان تنجو من اللاهوت.

فهل يُرد علينا بأن المادة لم تكن موجودة دائماً، وأنه وجب خَلقُها؟ اريد التأكد من ان الذي يتكلم هكذا يعطي الكلمات محتوى، ويعرف عمّ يتحدث: «لا يمكن تصور شيء كان موجوداً دوماً: اذن فالمادة لم تكن موجودة دوماً: لقد خلقها إله ... كان موجوداً دوماً!» ماذا يستفاد من هذا الدور المنطقي؟ اللهم الا مضاعفة الصعوبة باضافة هـذه الفقرة غير المفهومة عن هذه «الروح الخالصة التي تخلق المادة».

ان التكوّن المادي للفكر يعرض علينا، كما سوف نرى، حججاً هي أجدر بالتصديق والاقتناع بها.

صحيح انه جرت هنا ايضاً محاولات لالقاء ستر من الظلام على انتقال الواقع الخارجي الى الصورة التي تعطيها لنا حواسنا، عنه.

وانطلاقاً من هذا الحدث الواقعي الذي لا جدال فيه وهو ان الشكل الذاتي للاحساس البشري رهين بتركيب حواسنا ، بل إنه رهين بالحالة العامة للجهاز العضوي ، حاولوا باسم « مثالية فيزيولوجية » معينة، تبرير هذا التأويل: ان نوع الاحساس ليس رهناً بطبيعة التحريض الآتي من العالم الخارجي ، وانما هو رهن بطبيعة الجهاز العصبي . وهذه هي نظرية « الطاقة النوعية للاعصاب » التي وضع صيغتها جوهانس مولر عام ١٨٢٦(١) .

وضع هلمولتز الفرضية بأن ثمة في العين ثلاث شبكات مختلفة من الالياف العصبية : واحدة لكل لون اساسي . واذ كان كل عصب حساس يطابقه نوع خاص من الاحساس ، فيمكن اذن لمحرضات مختلفة ان تستثير حاسة واحدة بعينها . لذلك لا تعطينا هذه الحاسة — في زعمهم — انباء عن العالم الخارجي، وانما هي تنبئنا عن جهازنا العضوي الخاص . وهكذا لا يكون مصدر الاحساس هو الشيء وانما الشبكة العصبية . هذا ما كان يعلنه هلمولتز: « ان نوع احاسيسنا، سواء أكان الامر يختص بالضوء، ام بالحرارة، ام بالصوت ، ام بالطعم ، الخ ... ان نوع احاسيسنا ليس رهناً بالموضوع الخارجي المدرك حسياً ، وانما بالعصب الحاسي الذي ينقل الاحساس (٢). »

ان آلية تكوّن « المثالية الفيزيولوجية » مماثلة لآلية تكوّن « المثالية الفيزيائية » : وهنا ايضا ليست الفيزيولوجية (كما لم يكن

١ - ج. مولر Zurverfleichenden Physiologie Gesichtcinnes Leipzig . 1826 .

٢ - هلمولتز . Recherches scientifiques sur la vue ابحاث علمية في البصر - محاضرة ٢٧ شباط ١٨٥٥ - كونغسبرغ .

علـم الطبيعيات الذي بحثناه منـذ قليل) هي التي تقودنا الى المثالية او اللاأدرية ، ولكن ما يقودنا اليهما هي المسلمات المثالية المدسوسة عند نقطة انطلاق تأويل الحدث الواقعي (١) .

والشيء بارز ملحوظ عند هلمولتز نفسه، الذي يصل به الحد في ذلك ، الى خلط الصيغ المادية التي يقدمها عالِم الفيزيولوجيا ، بالصيغ اللاأدرية التي يقدمها الفيلسوف ، في جملة واحدة ، محاولاً حفر هوة بين « الظاهرة »و «الشيء في ذاته » .

وهو يكتب قائلًا : « ان أحـــاسيسنا هي اعمال تثيرها في اعضائنا أسباب خارجية ، وانما بطبيعة الجهاز الذي يتلقى هذا الفعل تتعلق،طبعاً،الكيفية التي بها يعبّر هذا الفعل عن نفسه. ان الاحساس يمكن ان يعتبر بمثابة رمز وليس بمثابة صورة ... ذلك لانا نتطلب من الصورة بعض الشبه مع الشيء الذي تمثله... ولكن لا يطلب من الرمز أي شبه مع الشيء الذي يعنيه (٢) . »

والوثبة هنا من المادية الى المثالية بدهية ، فبعد ان وضع هلمولتز العلل الخارجية التي كان بحثه العلمي مستحيلاً بدونهـــا ، جردها من كل حقيقة واقعية ومن كل تثبت ويقين وذلك بوساطة نظريته اللاأدرية عن « الرمز » ؛ ذلك لانه ان كانت الاحاسيس « دون اي شبه ما » بعلتها الخارجية ، فهذه الرموز تستطيع ان تنتسب الى موضوعات متوهّمة كما يمكن انتسابها الى موضوعـــات واقعية .

---

١ ـــ هذه البراهين نفسها تحتفظ بقيمتها ضد ذلك الضرب الحالي من ضروب « المثالية الفيزيولوجية » ونعني به تفكير غولد شتاين .

٢ ـــ هلمولتز ـ فورتريج أوند ريدن ـ برونسويك ١٨٩٦ ، ج ٢ ـ ص ٢٢٢ .

وهكذا انحصرنا في رؤى المثالية الذاتية ؛ وقد فطن هلمولتز الى هذا ، بما أنه يعترف به ، بعد صفحات معدودات : « لا أرى كيف يُستطاع دحض منهج مثالي ذاتي ، مدفوع به الى حده الاقصى ، لا يريد أن يرى في الحياة الا حلماً (١) . »

والنظرية اللا أدرية عن « الرمز » هي على وجه الدقة التي منعته من دحض المثالية الذاتية التي يتمرد عليها رغم ذلك ، بوصفه عالماً مجرباً : وهو يعلن ان المثـــالية الذاتية « بعيدة عن الصواب» ويضيف : « ان الفرضية الواقعية هي الأبسط ، وقد تم التثبت منها أكثر ، وبصورة أفضل مما جرى لسواها . وقد تأكدت في حقول تطبيقية واسعة اعظم اتساع ، محددة في جميع اجزائها حتى التحديد، فهي تبعاً لذلك في أرفع مرتبة من النشاط العملي، والخصب ،بوصفها قاعدة للعمل (٢) . »

ان المغامرة الفاشلة التي قام بها هلمولتز ،بنفسه ، بوصفه فيلسوفا لاأدرياً ، قواعد عمله ، بوصفه عالما ، لهي عظيمة الدلالة . ولسوف يستخدم رمكه **Remcke** بصورة واسعة، هذه المثالية الفيزيولوجية ، التي أردنا الاقتصار مؤقتاً على الاشارة الى مصدرها . ففي سلسلة الاحداث الفيزيائية البيولوجية التي تبدأ ، فيما يتعلق بحالة البصر ، ببث ضوئي من شيء خارجي ، وتتابع عمليتها في عُصَيّات الشبكية، وفي الاعصاب البصرية، والمراكز الدماغية، تعزل المثالية الفيزيولوجية بعض الحلقات ، وتضخمها ، وهي حلقات الجهاز العصبي ،

١ ـ المرجع ذاته ، ص ٢٤٢ .

٢ ـ المرجع ذاته ، ص ٢٤٣ .

وتلقي ستاراً على العالم الخارجي الذي هو مصدر الاحساس .

بيد انه اذا كان صحيحاً ان الشكل الذاتي للاحساس يتعلق بتركيب حواسنا ، وبالحالة العامة لجهـــازنا العضوي ، فهذا لا يمنع من أن في هذا الشكل الذاتي ينعكس محتوى موضوعي ليس رهيناً بتركيب حواسنا ، ولا بحالة الجهـــاز العضوي الانسان ، بصورة عامة . فثمة في ظاهرة الاحساس لحظة موضوعية ولحظة ذاتية لا يمكن عزل احداهما عن الاخرى او تفضيل هذه على تلك ، او بالعكس ، بصورة تحكمية .

والقول بأن الصورة الشبكية او الصورة التي تتمثلها في غياب الشيء ، لا يمكن ان تتناظر مع النموذج الخارجي ، هذا القول حقيقة بدهية ، ولكنها حقيقة لا يمكن ان تقودنا مطلقـــا الى التقليل من شأن الصورة حتى تصبح « اصطلاحاً » لا علاقة له بالشيء .

بل ان التجربة تثبت العكس : فاذا كان صحيحاً ان الاحساس ليس الا رمزاً ، « دون ايما شبه » بالشيء « واذا كان يمكن ، بالتالي ، ان تطابقه اشياء عديدة متغايرة ، او اشياء وهمية ، ومثلها تماما اشياء واقعية ، عندئذ يكون التعوّد البيولوجي على البيئة مستحيلاً ، اذ افترضنا ان الحواس لا تتيح لنا تعيين اتجاهنا ، بيقين ، وسط الاشياء ، والرد عليهـــا بفعالية . بيد أن كل النشاط العملي **la pratique** البيولوجي للانسان والحيوان يدلنا على درجات اكتمال هذا التعود (وهو اكتمال يتفاوت أقداراً) .

وتبين لنا البيولوجيا ، بالاضافة الى ذلك ، أن الحواس ، مثلها

مثل الجهاز العصبي بصورة عـــامة ، هي نتيجة التطور التاريخي للكائنات الحية ، بأجمعه ، في علاقاتها مع البيئة .

وهكذا لا تستطيع المثالية ، باية حال ، الادعاءبكونها نظرية المعرفة،مؤسسة على العلوم البيولوجية .

وخلافاً لذلك تعلمنا البيولوجيا :

١ ـــ ان ليس ثمة فكر بدون دماغ .

٢ ـــ ليست العين هي التي أحدثت الشمس وانما الشمس هيالتي أحدثتالعين ، بعدسلسلة طويلة من عمليات التبيّوء.

. . .

ثالثاً : انالعالم وقوانينه يمكن النفوذ اليها بصورة تامة، من قبل المعرفة التي يراجعها ويتثبت من صحتها النشاط العملي .

ليست ثمة خارج المادية ، الا المثاليـــة الذاتية ، او الدين، يعني: ضربين اثنين من ضروبالمثالية : وهما مثالية ذاتية، ومثالية موضوعية .

وينبغي ان نختار الانطلاق ، كما يفعل القائلون بالمـــادية ، من المادة الى الوعي ؛ او الانحصار في نطاق الوعي الخالص ؛ وعـــدم الخروج منه الا للذهاب نحو الله .

لقد أملت اللاأدرية النجاة من هذا المأزق ، المحدد بوجهتين. فبحثت عن « طريق ثالثة » في الاتجاه التالي :

هي تصرح بان العالم غير قابل لأن ُيعرف . ان فكر الانسان، مسجون في حدود تجربة محسوسة ، لا ُتعتبر رابطة بين الفكر

والاشياء وانما هي شاشة عرض . ويمكن ان تعرض علينا هـــذه اللاأدرية ذاتها في شكلين مختلفين : شكل فلسفة هيوم **Hume** الذي ينفي نفياً مطلقاً ، وصريحاً ، الوجودَ الموضوعي للاشياء ، وهـذا من اشكال المـذهب الارتيابي ؛ وشـكل فلسفة « كانت » التي تصرح : انني أؤكد ، ضد المثـاليين ، « ان ثمة اشياء في ذاتهـــا » ، خارجـاً عني ، وبصورة مستقلة عني ، ولكنني أؤكد ، ضد الماديين ، ان هذه الاشياء لا يمكن معرفتها ، ذلك لأنني لا استطيع معرفتها كما هي في «ذاتها» وانما فقط كما هي «بالنسبة الي». وجميع الاشكال التي جاءت فيما بعد : الفلسفة الوضعية ، وفلسفة الذرائع ومتفرعـاتها : الفلسفة الدلالية ، وفلسفة الظواهر ، والفلسفة الوجودية الخ ... لا تاتي الا بضروب الى هذه الافكار الاساسية التي ترتد حتماً الى التأكيد المثالي القديم : ليس ثمـــة موضوع بلا ذات .

بيد ان هذه الفلسفة النغلة غالبا ما تكون ، حالياً ، المثالية في حالة تراجعها ، وهي تتميز عنها في بعض الاحيان ولكن هذا التميز يكاد لا يعدو الالفاظ .

وينبغي ان نضع المذهب اللاأدري ، بوضوح ، في موضعه الصحيح بالنسبة الى المادية وذلك ببياننا :

اولا : ان اللاأدرية لا «تتخطى» مطلقاً ، ولا بأية صورة من الصور ، التعارض الاساسي بين المادية والمثالية ، وانما هي تكتفي فقط ، بمضاعفة حالات التشويش ، هائمة باستمرار بين المثالية

والمادية (١) .

ثانياً : وتقوم اللاادرية ،في آخر الامر، بالدور نفسه الذي تقوم به المثالية، جاهدة للحد من مرمى المعرفة العلمية، لافساح

---

١ - يشير لينين في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي » الى هذا الموضوع ، فيما يتعلق « بكانت » : « ان الطابع الجوهري لفلسفة « كانت » هو انها توفق بين المادية والمثالية ، وتقيم تفاهماً بين هذه وتلك ، وتلائم ، في مذهب منهجي واحد بين تيارين من تيارات الفلسفة ، مختلفين ، متعارضين . « وكانت » ، بقبوله بأن « شيئاً في ذاته » خارجياًعنا ، يطابق تصوراتنا ، انما يتكلم كمادي . ولكنه باعلان هذا الشيء غير قابل لان يفهم ، واعلانه شيئاً متعالياً ، موضوعاً في الماوراء ، انه يتكلم كمثالي . « وكانت » حين يعترف بالاحاسيس ، في التجربة ، المصدر الوحيد لمعارفنا ،انما يتجه نحو النزعة الحسية **sensualisme** ، وبوساطة هذه النزعة الحسية ، يتجه - ضمن بعض الشروط - الى المادية . وهو ، باعترافه بقبلية **apriorité** المكان والزمان والسببية الخ ... انما يوجه فلسفته نحو المثالية . وهذه اللعبة المزدوجة عادت على « كانت » بانه حورب بلا هوادة سواء من قبل الماديين المنسجمين مع تفكيرهم ام من قبل المثاليين المنسجمين مع تفكيرهم (ومنهم اللا أدريون « الاصيلون » - الذين هم على شاكلة هيوم ...) لقد أخذ عليه الماديون مثاليته ، ودحضوا الطوابع المثالية لمذهبه ، ودللوا على امكان معرفة الشيء في ذاته ، وعلى عدم وجود فرق اساسي مبدئي بين الشيء في ذاته والظاهرات ، وبينوا ضرورة استنتاج السببية وسواها ليس من قوانين الفكر القبلية **apriori** « السابقة للتجربة » ، وانما من الواقع الموضوعي . لقد أخذ اللاادريون والمثاليون على « كانت » الاقرار بوجود « الشيء في ذاته » ، مما يعد بمثابة تنازل **Concession** للمادية ، و « للواقعية » ، والواقعية البسيطة . ولم يكتف اللاأدريون برفض «الشيء في ذاته» ، وانما رفضوا ايضاًمبدأ القبلية . لقد تطلب المثاليون بالحاح وقوة ان لا تكون اشكال الحدس القبلية هي وحدها المستنتجة منطقياً من الفكر الخالص، وانما طالبوا ايضاً بان يستنتج منه الكون بصورة عامة ، اذ يتسع فكر الانسان حتى يبلغ الانا المجردة او « الفكرة المطلقة » او ايضاً حتى يبلغ الارادة الكونية . »

المجال للايمان .

ان جميع المحاولات المبذولة لشق «طريق ثالثة» في الفلسفة، تتخذ الذريعة نفسها: لا تحل جميع القضايا بوساطة المادية. وعندئذ يسردون عن طيبة خاطر، جميع الثغرات ومواضع النقص في معرفتنا. والحق ان مادية القرن الثامن عشر الغيبية قد تبجحت بأنها تفسر كل شيء في آلية العالم . ولقد جعلت من الطبيعيات غيبيات وكانت تدعي أنها تحل جميع القضايا بطرائق الآلية (الميكانيك).

ان خاصة المادية الديالكتيكية ليست هي نفي وجود الثغرات في علمنا ، وانما خاصتها ان تنفي ، أن هذه الثغرات هي نهائية . المجهول، ليس هو ما لا يمكن معرفته. وكون مسألة لمّا تحل لا يعني اننا بازاء سر لا يُسبر غوره . فالجوهري المهم هو طرح المسائل ووضعها بصيغ تتيح حلها .

يظن اللاأدريون انهم يحرجون القائل بالمادية عند القاء هذا السؤال عليه : ما هي المادة، او هذا السؤال : ما هو الشيء في ذاته ؟

وها هم يجيبون هم انفسهم : المادة هي ذلك المجهول الذي يولد منه كل ما هو معلوم .

ولنذكر بتعريف لينين: « المادة هي ما ينتج الاحساس ، بفعله في حواسنا . »

او ايضاً :

« المادة هي الواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساس . »

ولسوف يقول صاحبنا اللاأدري : وماذا تعرفون عنها ؟ انكم لا تعرفون شيئاً . وعلى هذا يجيب القائل بالمادية : نحن نعلم من

المادة ما يعلّمنا عنها العلم . لا اكثر ولا اقل .

وصاحبنا اللاأدري المتمسك بظنه بأنــه ازاء مادية القرن الثامن عشر الغيبية سوف يستمر مردداً هذا السؤال المخادع : انتم تظنون ــ اذن ــ بأن العلم يعطيكم حقيقة موضوعية ؟

هــذا السؤال يتضمن شركاً ، يعني تشويشاً . انــه ذو اتجاهين :

اولا : هل يستطيع العلم ان يعطينا عن الكون صورة مستقلة عن الذات ، عن الانسان ، عن البشرية ؟

ثانياً : هل تتضمن هذه الصورة وصفاً كاملاً ، نهائياً ، للواقع ؟

تجيب المادية على السؤال الاول بـ « نعم » دون تردد .

وعلى السؤال الثاني تجيب المادية بـ «لا» دون تردد ايضاً .

والاجابة بـ « نعم » على السؤال الاول انمــا هي العودة الى تأكيد المبدأ الاساسي لكل مادية : ان الخاصة الوحيدة للمادة التي يعرّف الاقرار بها المادية الفلسفية انما هي وجودها ــ اي المادة ــ خارج وعينا، يعني كونها واقعاً موضوعياً . العالم ليس فقط، كما يزعم اللاأدريون « التجربة المنظمة اجتماعياً . » انه يوجد بصورة مستقلة عن التجربة البشرية، فردية كانت ام اجتماعية .

والاجابة بـ « لا » على السؤال الثاني، تعني التذكير بالطابع الديالكتيكي لماديتنا ؛ لقد قلنا : يجب ان لا نخلط سؤال : « مــا هي المــادة» بسؤال آخر : « ما هي بنية المــادة ؟ » السؤال الاول ، يتجه الى مصدر معارفنا ؛ والسؤال الثاني ، الى وصف هذه المرحلة او تلك ، من مراحل معرفتنا.

اذا ما تمثلنا العالم في هذا الظرف او ذاك من ظروف تاريخ العلوم «
ذرات تنهمر في الفراغ ، او ساعة تفصّل نوابضها او مسنناتها ، او كسلسلة من شحنات التموجـــات ، او كوابل من العناصر الاشعاعية ، فهذا لا يغير شيئاً من الحدث الواقعي الدائم وهو ان هذا الواقع – كائناً ما كانت درجة المعرفة التي نملكها عنه ، وكائناً ما كانت سيطرتنا عليه – يوجد خارج الذهن ، وبدونه . ولكن يقال لنا : ما هي العلاقات – اذن – بين المادة كما هي « في ذاتها » وكما هي « بالنسبة الينا » ؟ ان خطأ اللا أدريين هو انهم يعارضون بين هذين الطرفين ، تجريدياً ، وخارجاً عن التاريخ . وهذا التضاد انما هو غيبي محض . ولنضع القضية وضعها الملموس ، في التاريخ ، يعني ديالكتيكياً . فسوف يبين لنا تطور العلوم أن « حدود الصفة التقريبية لمعارفنا بالنسبة الى الحقيقة الموضوعية هي نسبية تاريخياً ، ولكن وجود هذه الحقيقة نفسها لا جدال فيه ، كما لا جدال في اننا ندنو منها (١) »

ان النشاط العملي اليومي والتجريب العلمي يجيئان هنا بحل للمسألة التي ليست مستحيلة الحل الا اذا كانت مطروحة فقط على الصعيد النظري . وكان انجلس قد كتب من قبل : « ان الدحض الاكثر جذرية لهذه الخدع الفلسفية ، كما في جميع الخدع الاخرى ، يقدمه لنا النشاط العملي ، وعلى وجه التدقيق ، تقدمه لنا التجربة والصناعة . واذا كان ممكناً لنا التدليل على صحة مفهومنا عن ظاهرة طبيعية باحداثها عندما نريد ، او بتسخيرها لخدمة غاياتنا ، يختفي « الشيء في

١ – لينين ، « المادية ومذهب النقد التجريبي » ص ١٠٨ .

ذاته » ، الذي لا يمكن التقاطه ، والذي نادى بــه « كانت » .
لقد ظلت المواد الكيمياوية الناتجة من الاجهزة العضوية الحيوانية او النباتية « اشياء قائمة بذاتها » ، الى ان اخذت الكيمياء العضوية في تحضيرها الواحدة بعد الاخرى . ومنذ ذلك الحين ، صار «الشيء في ذاته » بسبب ذلك نفسه ، « شيئاً لنا » . ان المعرفة ، ان العلم ، ليسا شيئاً آخر غير تحويل « الشيء في ذاته » الى « شيء لنا (١) ».

مستحيل ــ اذن ــ ان نحفر هوة بين الطرفين . وانما نحن نصل الى الاستنتاجات التالية التي تلخص ردنا على اللا أدريين :

اولا : ان الاشياء موجودة ، خارجاً عنا ، بصورة مستقلة عن احاسيسنا ، وعما لدينا من معرفة عنها ؛ والا كان علينا القول إن الكوكب نبتون لم يكن موجوداً قبل ان يكتشفه العالم لوفرييه Leverrier ، والراديوم قبل بيار كوري ، P. Curie والجراثيم قبل باستور .

ثانياً : لا يوجد ، ولا يمكن ان يوجد اي فرق ، من ناحيــة طبيعته ، بين الشيء « في ذاته » و « الشيء لنا » ، فأحدهما ما هو معروف ، والآخر ما لم يعرف بعد . ولا يوجــد جدار بيننا ، وبين عالم مجهول ، تهيمن فيه المعجزات والاسرار وما لا يمكن معرفته .

ثالثاً: في نظرية المعرفة، كما هو الحال في جميع القضايا، يجب التفكير ديالكتيكياً ، يعني ان لا نعتبر الوعي بمثابة كلٍ لا يتغير ، وانما يجب تحليل الحركة التي تولد بها المعرفة من الجهل ، وتعمل بوساطة

١ ـ لينين ، « المادية ومذهب النقد التجريبي » ص ١٠٨ .

التقريبات المتوالية .

رابعـــاً : « ان مسألة كون الفكر الانساني صحيحاً ، بصورة موضوعية ، هي مسألة عملية وليست نظرية .» (ماركس — القضية الثانية عن فورباخ) ان نجاح اعمالنا يدلل على مطابقة مدركاتنا الحسية للطبيعـة الموضوعية للاشياء المحسوسة .

وهكذا ـ اذن ـ ، خلافاً للأدرية الزاعمة أن المعرفة لا تستطيع الرقي الى ما وراء الاحساس ، (كما كان يؤكد ماخ **Mach**) تعتبر المادية ان الاحساس هو نتيجة العمل الذي تؤثر به على اعضاء حسنا اشياء تكون موجودة موضوعياً،خارجاً عنا . كتب لينين « ان الاحساس هو صورة ذاتية عن العالم الموضوعي (١) . »

وخلافاً للأدرية ، الزاعمة أن «الشيء في ذاته» لا يمكن معرفته، تدرس المادية تحوّل « الشيء في ذاتـــه » الى ظاهرة ، الى « شيء لنـا » . وفي هـــذا التحوّل ، بالضبط ، تقوم المعرفـة . ويعطينـــا انجلس عن ذلك مثالاً جليـاً : « بقيت المواد الكيمياوية المنتجة في الاجهزة النباتية والحيوانية « اشياء في ذاتها » الى ان اخذت الكيمياء العضوية تحضر تلك المواد مادة بعد الاخرى. وبذلك صار « الشيء في ذاته » « شيئاً لنا » . مثلاً مادة الفوة الملونة التي تزرع عادة في الحقول،ولكن التي نستطيع استخراجها من قطران الفحم الحجري ، بثمن اقل،وبصورة ابسط كثيراً (٢). »

والمادية لا تفصل الفكر عن الحياة، فهي بذلك نقيض اللا أدرية

---

١ ـ لينين ، « المادية ومذهب النقد التجريبي » ص ٩٢ .

٢ ـ « لودفيغ فورباخ » لانجلس ، ص ٢٤ .

والمثالية اللتين تفصلان المعرفة عن مجموع النشاط البشري، وتزعمان انهما تطرحان على العلم قضية شكلية ثانوية وذلك حين تصرف النظر في تأملاتها التجريدية عن التجربة السابقة كلها . ومع التمييز بعناية بين مسألة وجود الحقيقة الموضوعية، ومسألة المعيار العملي للحقيقة (وهو تمييز لا تعمل به فلسفة الذرائع) اقول الى جانب ذلك تعتبر المادية ان « مسألة معرفة ما اذا كان الفكر البشري هو صحيح موضوعياً انما هي مسألة عملية وليست نظرية. وبالنشاط العملي ينبغي للانسان التدليل على صحة الشيء ، اي على حقيقته الواقعية ، على قوته ، على ما لتفكيره من مرمى . ان كل مناقشة في واقعية الفكر المنعزل عن النشاط العملي او عدم واقعيته انما هي مناقشة كلامية مدرسية محض (١) ».

وثمة مثال نموذجي عن هذه المدرسية (الكلامية) تقدمه لنا طريقة كارناب في مناقشة مسألة قيمة معطيات التجربة « ويبرهن» بها على ان معطيات التجربة هذه لا تمثل الا درجة معينة من الاحتمالية وانها ليست في الواقع الا افتراضات . يختار كارناب هذا المثل : « هذا المفتاح مصنوع من الحديد . » ويجهد ليبرهن على ان العلم عاجز عن اثبات حقيقة هذا التأكيد، الذي يظل ، كما يزعم ، افتراضاً يتفاوت بين درجات الاحتمال . واليك طريقته في التفكير يقول : « بوسعنا محاولة التثبت تجريبياً من حقيقة التأكيد بمراجعتنا اذا كان المفتاح يجتذبه المغناطيس . والنتيجة

---

١ ـ كارل ماركس ـ القضية الثانية عن فورباخ .

الايجابية للتجربة تقدم لنا الدليل الجزئي على ان المفتاح هو من حديد. ويتابع كارناب قائلا : « نستطيع بعد هذا ، او بدلاً من هذا ، القيام بتجارب ، بالطرائق الكهربائية ، والآلية ، والكيمياوية، والبصرية ، الخ ... واذا جاءت نتائج التجارب التالية ايجابية ، يزداد باستمرار تحديد معادلة ب وعدد النتائج المستمدة من ب وهي غير محدودة . ويترتب على ذلك ان سوف يكون لدينا دائماً امكانية ان نجد في المستقبل نتائج سلبية . »

ان الطابع الكلامي لهذه البراهين يظهر بصورة اوضح ايضاً في التوسيع الذي يعطيها اياه البروفسور هنل ، انه يأخذ المثل نفسه ولكن بصورة أعم . فيقول : «كي تكون التجربة بوساطة القطعة المغناطيسية حاسمة يجب ان نكون على ثقة بأن ما نضعه ازاء الشيء هو قطعة مغناطيس حقاً . ويتابع هنل قائلا بلهجة خطيرة وقور : ولنفترض ان اصدقاء مداعبين ، ابدلوا قطعة المغناطيس بقطعة من الحديد مشابهة ! فعليّ ــ اذن ــ ان أراجع متثبتاً من حقيقة قطعة المغناطيس ؛ مثلا : ان ادني بوصلة منها . ولكن ثمة مسألة تطرح عندئذ : هل هذه البوصلة هي حقاً بوصلة ؟.. وهلمجرا الى ما لا نهاية له .. »

وهكذا يفكرون كأنّ على المجرّب ان يقوم بتجربته صارفاً النظر عن النشاط العملي الانساني السالف كله ، عن النشاط العملي التاريخي للعلم . وانها لروبنسونية [١] فلسفية : فمفكرنا اللاأدري يحسب نفسه

---

١ ـ نسبة الى روبنسون كروزو .

في موقف روبنسون، وهو في جزيرته المقفرة ، ومعه مفتاح وقطعة مغناطيس . و« جمعة » (خادم روبنسون) وهو الألعبان ، قـــد استبدل بقطعة المغناطيس قطعة حديد غـــير ممغنطة ، وها هو روبنسون يضطر الى التحقق بنفسه من سلامة جميع ادواته فيبدأ من البداية ، واذ لم يبق ثمة بداية ولا نهاية ، فصاحبنا روبنسون يصبح لا أدريّا .

والواقع ان العلم لا يعمل على هذه الصورة ابداً . فلو نشأت عندي بعض الشكوك في مادة المفتاح الذي بين يدي ، فان تجربة واحدة تجري بالطريقة الطيفية **spectrale** او بأية طريقة اخرى من طرق التحليل المختصة تنبئنا بتركيبه، فهو مثلا : حديد ٩٨،٥٣٪ ، كربون ٠،٧٤٪ ، مانغنـــيز ٠،٤٠٪ ، سيليسيوم ٠،٣٠٪ ، كبريت ٠،٠١٪ . فوسفور ٠،٠٢٪ .

واذا سألنا كارناب او هنل او روبنسون : أهذا يقين ام لا ؟ سوف نجيب باطمئنان : نعم ، انه ليقين . ومهما كانت التجارب التي نستطيع القيام بها بعد ذلك ، فالمفتاح الذي بين ايدينا لا يمكن ان يبدو رصاصاً ولا خشباً ، بل انه لا يستطيع ان يحتوي حتى على كمية من الحديد بنسبة اكثر من ١/١٠٪ ، او اقل ، ذلك لان طريقتنا لا تتقبل خطأ يزيد على ١/١٠٪

يسهل علينا تماماً معرفة الاشياء ، ومعرفة ما اذا كانت افكارنا تطابق الواقع ، ذلك لانـــه يمكننا بالتجربة والصناعة مراقبـــة الاستنتاجات النظرية للعلوم . واذا كنا نتوصل الى صناعة المطاط الاصطناعي فذلك لاننا نعرف « الشيء في ذاته » للمطاط ، ولاننا

عرفنا ان نحوله الى « شيء لنا » ، بالمعنى الخاص بنظرية المعرفة ، وبالمعنى العملي : لقد بلغنا حقيقة موضوعية ، ونجحنا ، تبعاً لذلك ، في السيطرة على هذه الحقيقة الموضوعية .

وكل فلسفة (بدلا من تفكيرها في هذا السير العلمي والتقني المعرفة) تزعم انها ، سبقاً للتجربة ، تضع للمعرفة العلمية سؤالا مسبقاً ، انما تكون قد وضعت نفسها ، بداهة ومن اول الامر خارج خط السير التاريخي لفكر الانسان . وعندئذ يكون على العلوم التي دللت على اتفاقها اثناء تطوير الطبيعة مع واقع الطبيعة الموضوعي والمتكامل اكثر فاكثر ، يكون عليها عندئذ ان تطرح على هذه الفلسفة المتعجرفة هذا السؤال الاولي: على اي شيء — اذن — تؤسسين قيمة تصورك المنفصل عن الحياة ؟

هذا هو ، كما سوف نرى ، السؤال الذي يجدر بنا طرحه اولاً على فلسفة الظواهر **phénoménologie** ذلك لان هوسرل **Husserl** او موريس ميرلو بونتي يدعيان مصادرة عالم — التجربة — وحرمان العلم منه . وهما ينسبان الى نفسيهما امتياز « رؤية » اصل الواقع الذي يزعمان ان العلوم لا تعطينا عنه الا نسخة مترجمة وتعبيراً تابعاً هزيلا ، وباختصار : تعطينا عنه نظرة قاصرة . « ولفلسفة الظواهر » احتكار هذه الرؤية للواقع الحقيقي ، وعلى العالم الرياضي ان يستجدي من الفيلسوف الاذن بالوصول الى « الماهيات » وعلى عـالم الرياضيات ان ينتظر من الفيلسوف سر الطريق نحو الاشياء ، والتعريف بالعـالم . فلا تكون الفلسفة ،

بعد ذلك ، في زعم هؤلاء ، طريقة ، تنفذ الى جميع العلوم وتغتني بمكاسبها جميعاً خلال غورها ، كي توحد ، في تأليف أعلى ، جميع المكتسبات ، في كل مرحلة من مراحل التاريخ ؛ ولم تعد الفلسفة ، في زعم هؤلاء ، اداة للبحث العلمي ، وانما مهمتها « اعادة » المعرفة من جديد . وسوف تبدأ ــ كما يزعمون ــ بـ « انكار » العلم ، وببذلها جهداً لحملنا على التخلي عن عالم الموضوعية ، كي نصل الى حقيقة خالصة ليست (حسب تعريفها) في جانب العلم .

سوف تكون مهمة النظرية المادية للمعرفة ، على وجه التحديد ، ان لا تقطع ابداً الفكر الفلسفي عن الفكر العلمي ، ولا عن النشاط العملي التاريخي ، الذي حققته الانسانية خلال تملكها البطيء للطبيعة .

وعندئذ سوف تؤسس قيمة المعرفة على قاعدة راسخة : ان الفكر يستطيع ان يعرف الطبيعة معرفة تامة ذلك لانه يؤلف جزءاً منها ، ذلك لانه نتاجها والتعبير الاعلى عنها : ان الفكر هو الطبيعة تعي ذاتها في ضمير الانسان . يقول لينين [1] : « ان الكون هو حركة للمادة تخضع لقوانين ، ولما لم تكن معرفتنا الا نتاجاً اعلى للطبيعة ، لا يسعها الا ان تعكس هذه القوانين . » ولقد كان انجلس يبين في كتابه « انتي دوهرنغ » ان المادية الفلسفية هي وحدها التي تستطيع تأسيس قيمة المعرفة على دعائم متينة : حين يؤخذ « الوعي » و « الفكر » على انهما شيئان معطيان ، كانا في كل زمان يتعارضان مع الطبيعة ومع الكائن ، عندئذ يؤدي ذلك بنا حتماً الى ان نجد رائعاً جداً كون وعينا للطبيعة ، وتفكير الكائن ، وقوانين

---

1 ـ المادية ومذهب النقد التجريبي . ص ١٣٩ .

الفكر منطابقة الى ابعد حد .. ولكن اذا تساءلنا ما هو الفكر ، وما هو الوعي ، ومن اين يأتيان ، وجدنا ان الانسان هو نفسه نتاج للطبيعة ، نما في بيئته ، ومع نمو هذه البيئة ، وعندئذٍ يصبح في غنى عن البيان كيف ان منتوجات الذهن البشري التي هي ايضاً ، عند آخر تحليل ، منتوجات للطبيعة ، ليست في تناقض ، وانما في توافق مع سائر الطبيعة المترابطة (١) . »

ان اثبات مختلف هذه القضايا سوف يؤلف جزءاً جوهرياً من النظرية المادية للمعرفة .

وليس لهذه المقدمة من هدف سوى تعريف المادية التي نرمي الى الدفاع عنها ، لنستبعد مناحي التشويش المعتادة في صدد المادة والمادية (٢) .

---

١ — ف. انجلس - انتي دوهرنغ « منشورات كوست » ص ٣٢ .

٢ — كي نبين كم هو صعب على القارىء ، ولو كان صادق النية، ان يكون لنفسه رأياً في المادية يكفي مثلا مراجعة مقالة « مادة » في الموسوعات الكبرى الحالية . ففي الموسوعة البريطانية **encyclopédie britannique** تبلغ مقالة « مادة» سطراً واحداً تماماً وهذا هو : « مادة - راجع النظرية الحركية للمادة . ذرة ، نواة . » « الموسوعة البريطانية - ١٩٤٠ - المجلد ١٥ ص ٩٤، الطبعة الرابعة عشرة . » وهذا كل ما هناك ! فالمسألة معماة بكاملهـــا : فلم يبق ثمة حتى من اثر للمادة بوصفها مقولة فلسفية .

اما في الموسوعة الاميركية « ١٩٤٤ — الجزء التاسع عشر ص ٤٤٠ » فمقالة المادة أغزر وأوفر ، فقد ارصدت منها بضعة سطور للمفهوم الفلسفي عن المادة ولكن فقط وفقاً لروح المثالية الذاتية : « لما كنا لا ندرك المادة الا بالادراك الحسي ، فكثيرون هم الذين تخلوا عن « فرضية » وجودها . » وللاستزادة من التفاصيل تحيل « الموسوعة الاميركية » على مؤلف « قواعد العلم » لبيرسون **Pearson** وهو يعرف القارىء

وتظهر عمليات التشويش هذه في الاعتراضات التي تُقدَّم ، بصورة عامة ،ضد المادية الفلسفية . وهي تُرد كلها الى عدد قليل . ومعظمها انما هو انتقادات لنظرية الانعكاس ، ومصدر الاعتراضات هو التالي : نحن لا نتمكن عند الحديث عن « الانعكاس » من التخلص من صورة المرآة ، او العدسة ، التي هي صورة آلية محض . وقد سبق لمالبرانش ان عبر عن هذا الاعتراض ايضاً وكان يسأل : كيف تستطاع المقارنة بين الشيء والفكرة ؟ صحيح انه اذا نظرنا الى المادة ، وفقاً للتصور الآلي ، فاعتبرناها قطعة من المدى الهندسي العادم الحركة ، فلا نستطيع بعدئذ فهم علاقاتها بالنشاط الذهني ، الا في ذلك الشكل المتخيّل شكل « الغدة الصنوبرية الدماغية » .

ان المادية الآلية المنطلقة من مفهوم عن المادة هو مفهوم ناقدها المثالي نفسه ، كانت تجد نفسها متضايقة حتماً في تفسير اصل الفكر ، وتطوره .

وهذه المادية، المنطلقة من فكرة صحيحة هي ان ثمة في الاحساس شيئاً ليس متعلقاً بالانسان ، ما كانت تستطيع ان تبين كيفية انتقال واقع المادة الموضوعي الى واقع الاحساس الذاتي ، أهي علاقة سبب بنتيجة ؟ ولكن ما العلاقة بين هذا السبب

الى جميع ضروب المثاليــه واللا أدرية وألوانهما . وفي فرنسه لا يدلل القــاموس **Vocabulaire philosophique** الذي نشرته مجلة الجمعية الفرنسية للفلسفة على موضوعية أكبر من تلك : فهو يعرف « المادة » و« المادية » بالمعنى الميكاني وحده، كأن لم يكن ثمة مادية خارج ذرية ابيقور وجبرية لابلاس.

« المكاني » وهذه النتيجة الفكرية ؟ هذا التعارض القطبي ، الغيبي ، كان يحفر بين الطرفين هوة لا يمكن اجتيازها ، ويجعل المسألة غير قابلة للحل .

ولكن على النقيض من ذلك اذا لم نفصل ، بصورة كيفية ، منذ البدء ، بين المادة والحركة ، واذا اعتبرنا « ان الحركة هي كيفية وجود المادة » حسب تعبير انجلس (١) عندئذ سوف تبقى المسألة معقدة كما سوف نرى ، ولكنها ستكون مطروحة بصيغ يظل معها الحل العلمي ممكناً : فسوف ينبغي بيان كيف ان حركة الشيء الفيزيائية تتحول الى حركة نفسية ــ فيزيولوجية لحواسنا ، وكيف تتحول هذه الى حركة نفسية للفكر .

ولسوف تكون هذه مسألة صعبة ، ولكنها متعلقة بطرائق علمية ، لها الصفة نفسها التي لدراسة انتقال حركة المطرقة الى سخونة في السندان ، باعتبار ان الفرق الكيفي بين شكلي الحركة (الحركة الآلية والحرارة) لا يمنع مطلقاً من تحليل الانتقال من شكل الى آخر .

هكذا تسقط الاعتراضات الخاصة بالسلبية المزعومة للفكر ، تلك التي تقتضيها المادية على ما يزعمون ويترتب على ذلك النفي المزعوم للذهن ولفعاليته ، وهذا النفي هو ، حسب زعم خصوم المادية الفلسفية ، نتيجة حتمية لهذه المادية .

وعلى النقيض من ذلك ، يكون علينا ان نبين ، بعد رسم خطوط تكوّن الفكر ، ان ليس ثمة عقيدة فلسفية تعترف للفكر بقيمة اعظم ولا بسلطان ارحب مما تعترف به المادية للفكر .

---

١ ـ انجلس ـ انتي دوهرنغ ـ الجزء الاول ص ٥٦ منشورات موليتور .

وسوف يتبين عندئذ ان جميع الانتقادات الموجّهة الى المادية انما تتجه ضد الاشكال الآلية والغيبية ، الاشكال غير المكتملة،للمادية السالفة .

منذ اكثر من قرن كشف معلمو المادية الحديثة ، من ماركس وانجلس الى لينين وستالين الستر عن نواحي النقص في المادية السالفة، وتغلبوا عليها .

كتب ماركس عام ١٨٤٥ (١) : « ان اهم عيب للمادية السابقة كلها ، هو انها لا تعتبر الشيء والواقع والعالم المحسوس ، الا في شكل الشيء او الحدْس لا بوصفها نشاطاً انسانياً ملموساً ، ولا نشاطاً عملياً ، كما لا تعتبرها بصورة ذاتية . وهــذا يفسر لماذا أغني الجانب الفعال من قِبل المثالية بتعارض مع المادية ، ولكن بصورة مجردة فقط ، ذلك لان المثالية لا تعرف طبعــاً النشاط الواقعي ، الملموس ، بوصفه نشاطاً واقعياً ملموساً . »

عين انجلس ، في كتابه « لودفيغ فورباخ » بكثير من الوضوح حدود المادية القديمة « المادية التأملية » حسب تعبير ماركس (٢)، يعني المادية التي لا تعتبر الحساسية بوصفها نشاطاً عملياً . »

وهذه الحدود ثلاثة :

اولا : كانت المادية القديمة آلية ، وهذا ما يُفَسَّر بحالة العلوم في العهد الذي صيغت فيه تلك المادية وطورت . لقد كانت الآليـات وحدها،وبصورة خاصة آليات الاجسام الصلبة، السماوية والارضية،

---

١ ـ كارل ماركس ـ القضية الاولى عن فورباخ ص ٧١ .

٢ ـ المرجع ذاته ، ص ٧١ .

وباختصار ، آليات جاذبية الثقل ، قد بلغت درجـــة معينة من الاكتمال . كان الاغراء عظيماً بتطبيق مبادئهـــا على جميع حقول الواقع ؛ وكانت البيولوجيا ما تزال في المهد . وكان الانسان في نظر ماديي القرن الثامن عشر آلة ، شأنه تماماً شأن الحيوان في نظر ديكارت . « ان هذا التطبيق الحصري للآليات على ظاهرات ذات طبيعة كيمياوية وعضوية ، ـــ حيث تفعل حتما قوانين الآليات ـــ ولكن تدفعها الى المرتبة الثانية من قبل قوانين من نوع أسمى ، ان هذا التطبيق يؤلف ضيق نظر معين ، ولكنه كان محتوماً في ذلك العهد من عهود المادية النهجية الفرنسية (١) . هكذا كان حكم انجلس ، سنة ١٨٨٦ ، ومن المناسب ان نتذكر هذا الامر كي لا يوجد ثمة من يستمر في « دحض » المادية الديالكتيكية ببراهين تصلح ، في افضل حالاتها ، ضد المادية المعاصرة لدمى فوكانسون الميكانيكية .

ثانياً : كانت المادية القديمة غيبية . ويتابع انجلس قائلاً (٢) : « وضيق النظر النوعي الثاني لهذه المادية ، كان يتلخص في عجزها عن النظر الى العالم بوصفه حركة تطور ، بوصفه مادة مندرجة في عملية نمو تاريخي ... كانوا يعلمون ان الطبيعة مندرجة في حركة دائمة ، ولكن هذه الحركة كانت ، حسب مفهوم ذلك العهد ، ترسم دائرة تظل هي اياها ، وبالتالي لم تكن تتحرك مطلقاً من موضعها . لقد كانت تنتج النتائج نفسها دائماً . » ويلاحظ انجلس ايضاً ان هـذا

١ ـــ ف. انجلس . لودفيغ فورباخ ص ٢٧ .

٢ ـــ انجلس ـ لودفيغ فورباخ ص ٢٧ .

المفهوم كان محتوماً في ذلك العهد ، وما كان ليستطاع الذهاب الى ابعد من ذلك ، الا بعد ثلاثة اكتشافات كبرى في القرن التاسع عشر ، جعلت حركات التطور الطبيعية المتسلسلة تتقدم بخطى العمالقة ، وهذه الاكتشافات الثلاثة هي : الخلية ، تحول الطاقة ، واكتشاف داروين لتطور الكائنات الحية. عندئذ، فقط استطاع المفهوم التاريخي عن الطبيعة ان ينمو .

ثالثاً : كانت المادية القديمة **ناقصة** . انها لم تكن تطبق مبادئها في حقل العلوم الاجتماعية ، وفي التاريخ. وفي تفسير الظاهرات الانسانية رأينــا مدى الصعوبة التي ادت اليها النزعة الالية . ولم تكن المادية القديمة تتوصل الى حل هذا التناقض : الانسان هو نتاج التاريخ ، والبيئة الاجتماعية والتربية ، ولكن التاريخ والبيئة الاجتماعية والتربية هي نتاجات الانسان . لم تكن المادية القديمة تتوصل الى حل هذا التناقض ، ذلك لانها لم تكن ترى ان الصلة بين الانسان والطبيعة انمــا هو النشاط العملي ، النشاط العمــلي الاجتماعي ، ولأنها ، لذلك ، لم تكن تستطيع التوفيق بين علم المجتمع ، يعني مجموع العلوم المسماة علوماً تاريخية وفلسفية ، والقــاعدة المادية لمفاهيمها واعادة بناء علم المجتمع على هذه القاعدة .

نصادف نواحي النقص هذه ، على درجات متفاوتة ، في مختلف اشــكال المادية التي جاءت قبل الماركسية .

حين كان ماركس وانجلس يحددان خصائص المــادية السالفة ، انما كانا يضعان نصب اعينهما مادية القرن الثامن عشر .

ولا يدخل في نطاق المهمة التي رسمناها لانفسنا في هذا المؤلف

وضع تاريخ للفلسفة المـــادية . ولنلاحظ فقط أن ثمـة ضرورة للتمييز ، بخطوط كبرى ، بين ثلاثة اشكال رئيسية للمادية قبل ماركس .

اولا : المادية القديمة ، مادية المجتمع المؤسس على الرق ، الذي تعبر عنه مؤلفات هيراقليطس ، وطاليس ، وديموقريطس ، وبعدها مؤلفات ابيقور ولوكريس .

ثانياً : مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهي مادية المجتمع البورجوازي ، التي صورها ، بخاصة ، الفلاسفة الفرنسيون الذين أعقبوا ديكارت وجـــاؤوا في القرن الثامن عشر : ديدرو ، هلفيتيوس ، دولباخ ، لامتري ، وخليفتهم الالماني : فورباخ .

ثالثاً : مادية « الثوريين الديموقراطيين » الروس في القرن التاسع عشر ، وابرز وجوههم تشرنيشيفسكي .

وواضح اننا لا نستطيع دمغ هيراقليطس من جهة ، وتشرنيشيفسكي من جهة اخرى ، دون تحفظ ، « بالنزعـة الآلية » « وبالغيبية » ، ولكن ما يظل قائماً هو الفرق الكيفي بين ماديتهما والماركسية ، فلم يتوصل كلاهما الى مفهوم عــلمي للديالكتيك ، وكلاهما يحتفظ بمفهوم مثالي عن التاريخ وعن المجتمع .

كتب ماركس في « **القضية الثامنة عن فورباخ** » : « ان الحياة الاجتماعية هي ، من حيث الجوهر ، نشاط عملي . وجميع الاسرار التي تحرف النظرية نحو النزعة الاسرارية الباطنية تجد حلها العقلاني في النشاط العملي البشري ، وفي تفهم هذا النشاط العملي . » وباثبات ان الانسان هو مجموع علاقاته الاجتماعية وانه لا يستطيع ان يوجد

وان ينمو ،دون ان يعمل بوساطة وسائل الانتاج التي أحدثها ، مع بيان ان وسائل الانتاج وتغير هذه الوسائل هما القوة التي تعيّن الحياة الاجتماعية . لقد اوجد ماركس وانجلس الطريقة الوحيدة التي تتيح حل مسائل نظرية المعرفة . ان كل نظرية للمعرفة يُنظر اليها خارج صلاتها بالنشاط العملي، لا يمكن ان تؤدي الا الى مأزق لا خروج منه، ذلك لانها تقتلع المعرفة من ثراها الحي وتعمّي اصولها ونموها. واىما فقط بربط نظرية المعرفة ، بالنشاط العملي مفهوماً بوصفه انتاجاً اجتماعياً ، وعملا ثورياً استطاع ماركس وانجلس ، تسديد ضربة قاضية الى جميع اشكال المثالية واللاأدرية.

ان المادية السالفة لم تكن قد توصلت الى الرقي لتفهم دور العمل وادوات العمل في الانتقال من الحياة البيولوجية الى حياة الانسان الاجتماعية ، تلك المادية ما كانت تستطيع تفسير الدور الخلاق للفكر . ذلك لانها لم تكن ترى في النشاط العملي مجموع العلاقات الاجتماعية . ان هذه المادية التي لم ترقَ الى وحدة النظرية والنشاط العملي ، لا يمكنها تفسير تحوّل العالم ولا المساعدة في تحويله ، وانما هي تظل تأملية ، غير فاعلة .

وعلى هذا النحو حُمِلت المادية القديمة على التخفيف من قيمة دور الافكار ، فيما المادية الديالكتيكية باجتهادها في درس الحياة الاجتماعية ، يعني المادية التاريخية ، بعد بيانها اصل الافكار ، ترى فيها « انعكاساً » عن الواقع ، وانما ليست مطلقاً انعكاساً سلبياً . وليس ثمة مَنْ وضع خط التشديد على قوة الافكار ، بصورة اقوى مما فعل ستالين : « اما من حيث خطورة الافكار ، ودورها في

التاريخ ، فان المادية التاريخية لا تنكرهما وانما هي على النقيض تشير اشارة خاصة الى دور الافكار وخطورتها العظيمة في الحياة الاجتماعية ، وفي تاريخ المجتمع ... ولولا عملها المنظّم ، والمعبّىء ، والمحوّل ، يستحيل حل المسائل العاجلة الملحة التي يقتضيها نمو المجتمع (١) . »

ب) ما هي النظرية المادية المعرفة؟

تلك هي القاعدة المادية لنظرية المعرفة . ومنها يتفرع وضع المسألة .

على النظرية المادية للمعرفة ان تفسر اصل الفكر ابتداء من حركة المادة ، وعليها دراسة تطوره منذ اكثر اشكال الانعكاس بدائية ، حتى المعرفة العلمية.

وعلى النظرية المادية للمعرفة (بالاتفاق مع علوم الطبيعة التي تدلنا على ان المادة غير العضوية تقدمت في الارض على ظهور الكائنات الحية ، وتدلنا على ان الاحساس ، فالفكر ، لم يستطيعا النشوء الا عند درجات نمو للجهاز العصبي بلغت حداً مرتفعاً جداً) . على النظرية المادية للمعرفة ان تعين المراحل الكبرى لهذا التكون.

كتب لينين على هامش فقرة من مقدمة الطبعة الاولى من كتاب المنطق لهيغل ، حيث يبين هذا ان «حركة الوعي» وكذلك نمو كل حياة طبيعية او فكرية ، انما يرتكزان على طبيعة الماهيات الخالصة التي تؤلف مضمون المنطق » كتب لينين : « ينبغي

---

١ — ستالين — المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (المنشورات الاجتماعية) ، ص ١٦ .

ان نقلب هذا : على المنطق وعلى نظرية المعرفة الانطلاق من نمو كل حياة طبيعية وفكرية (١) . »

الطبيعة عند هيغل ليست الا تقهقراً للفكرة العليا ، والفكرة تنتقل ، في الطبيعة ، بتطور يتيح لها العودة الى وعي ذاتها في الانسان والى النمو في التاريخ .

الديالكتيك عند هيغل هو الفكرة العليا l'Idée المنمية ذاتها بذاتهـا . امـا في نظر المادية التي تعتبر الافكار انعكاسات للأشياء الواقعيـة ، وليست الاشياء الواقعيـة انعكاسات لهذه او تلك من درجات نمو الفكرة العليا l'Idée . الديالكتيك هو « علـم القوانين العامة للحركة ، سواء للعالم الخـارجي أم للفكر الانساني . وبذلك لا يصبح ديالكتيك الفكر الا الانعكاس الواعي للحركة الديالكتيكية للعالم الواقعي . وعلى هذا النحو أعيـد ديالكتيك هيغل واقفاً على قدميه بعد ان كان واقفاً على رأسه (٢).

ولا يعني هذا مطلقاً انه يكفي ان يُقلب « علم ظاهرات الفكر » كما يُقلب القفاز فنحصل على نظرية مادية ديالكتيكية للمعرفة .

والمادية الديالكتيكية لا تقوم على معاودة السير في اتجـاه معاكس للطريق التي اجتازها هيغل ؛ ذلك لان المادية الديالكتيكية لا تحطم فقط نطاق المسائل التي طرحها هيغل ، وانما هي تغير تغييراً كاملاً الكيفية نفسها في وضع المسائل ، وبتعابير اخرى نقول ان المادية الديالكتيكية بتمييزها بين مذهب هيغل وطريقته ، تنبذ

---

١ ـ الدفاتر الفلسفية ـــ ص ٤٢ .

٢ ـــ انجلس ـــ لودفيغ فورباخ ص٤٧ .

المذهب بكامله وتعيد صياغة طريقته جذرياً .

لقد جهد هيغل لبناء مذهب مكتمل كان عليه التعبير عن الحقيقة المطلقة . فهو بهذا ، حكم على نفسه بتخطيط نمو الطبيعة كله ونمو المجتمع وتاريخ العلوم والفلسفة تخطيطاً جزئياً تجريدياً لكي يصل من هذه الطريق ، باكتمال مذهبه ، الى الاعلان عن نهاية التاريخ ، ونهاية كل نمو . لقد كان ثمة تاريخ ، ولكن لن يكون تاريخ بعد اليوم !.. ان العالم يتوقف ، والنظام الاجتماعي المسيطر تكرسه الفكرة العليا المطلقة . وكل فلسفة هيغل في الحق والدولة تنهض شاهداً على ذلك !..

ان روح المحافظة العميقة في المذهب ، هي في تناقض ظاهر بارز مع المبدأ الثوري للطريقة الديالكتيكية . يقول ماركس (١)« ان الشعوذة التي يؤدي اليها الديالكتيك عند هيغل لا تنفي مطلقاً ان يكون هذا الفيلسوف هو اول من عرض ، بصورة كاملة وواعية ، الاشكال العامة للحركة ... ولكن الديالكتيك عند هيغل مقلوب رأساً على عقب . ينبغي قلبه ، اذا أريد نزع القشرة المثاليـة عن النواة العقلية فيه . » والنواة العقلية ، كما يثبت لنا هذا النص — هي اذن دراسة قوانين التطور . ويتابع ماركس قائلا (٢) : « ان طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقـة الهيغلية من حيث الاساس فحسب ، بل هي ضدها تماماً . فحركة الفكر ، هذا الفكر الذي يشخصه هيغل ويطلق عليه اسم الفكرة ، هي ، في نظره ، خالق

١ — كارل ماركس — رأس المال (منشورات كوست)الجزء الاول ص ٩٥ .

٢ — المرجع ذاته .

الكون وصانعه فما الواقع الا الشكل الحادثي للفكرة. اما في نظري فعلى نقيض ذلك، ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية منقولة الى دماغ الانسان ومستقرة فيه (١) . »

كانت ديالكتيكية هيغل مرتبطة بمذهبه المثالي . ولما كانت الطريقة الديالكتيكية لا يمكن ان تستخدم من قبل المادية الا اذا تطورت الى دراسة علمية لما هو اكثر شمولاً في قوانين الحركة، في الطبيعة ، والتاريخ والفكر .

في هذه الحدود ، وهذه الحدود فقط ، يجب ان نفهم صيغة انجلس التي تحدد هكذا خصائص « علم ظواهر الفكر » « انه خط متواز بين علم الأجنة ، والابادة (٢) التي لها علاقة بالفكر : نمو الوعي الفردي خلال مختلف اطواره، مفهوماً بوصفه صورة مجددة مختصرة عن المراحل التي مر بها الوعي البشري — تاريخياً —(٣) . »

ان النظرية المادية الديالكتيكية للمعرفة هي ايضاً ، وبصورة لا تنفصم، تاريخ ومنطق معاً، ولكن ليس ذلك بالمعنى الهيغلي؛ وترشدنا العلوم الى انه ليس ثمة مطلقاً مادة دون حركة . ان الواقع ينمو ، والمعرفة التي تنشأ من هذا الواقع ، تعكسه ، وتنمو مثله وتصبح عنصراً فعالا من عناصر نموه . ان الفكر لا يُحدث موضوعه، وانما الفكر يعكس الواقع الموضوعي ويطوره باكتشاف

---

١ — نص لماركس اورده ستالين في كتاب «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية»، والفقرة هنا منقولة عن الترجمة العربية للاستاذ خالد بكداش .

٢ — إبادة **Paléontologie** — وضع الاستاذ العلايلي في معجمه الجديد .

٣ — انجلس ـ لودفيغ فورباخ . ص ٤٧ .

قوانين نموه . هذا التاريخ ، الذي هو واحـــد ، تاريخ الشيء وانعكاسه الفعال، إنما مهمة نظرية المعرفة استخراج منطقه، وتبيين هوية التاريخ والمنطق : التاريخ هو المنطق الملموس .

لقد عرّف لينين هذا المنطق فقال : « ليس هو علم الاشكال الخارجية للفكر ، وانما هو علم تطور جميع الاشياء المادية والطبيعية والفكرية — يعني تطور كل المضمون الملموس للكون ومعرفته ، يعني السجل ، او المجموع ، او الاستنتاج المستخلص من تاريخ معرفة العالم (١) . »

واضاف(٢) : «يجب ان يقوم إكمال عمل هيغل وماركس على الصياغة الديالكتيكية لتاريخ العلم ، والتقنيّة ، والفكر البشري » .

ولكي تدرس نظريتنا في المعرفة الانتقال من الطبيعة الى الذهن، علينا ان تبدأ بما قبل تاريخ الوعي. لذلك يترتب علينا دراسة حركة المادة قبل ظهور الحياة ثم حركة المادة الحية قبل ظهور الوعي ، ثم حركة الفكر .

ويكون علينا ان نستخرج من المعطيات الحالية للعلم ، القوانين الاكثر شمولا ، لنمو الواقع ، تلك التي تسمح عند كل مرحلة من مراحل الحركة بتفسير ظهور اشكالها الجديدة .

وليست هذه مطلقاً قوانين للفكر ، قبلية ، سابقة للتجربـــة **apriori** ، وانما هي (ولنردد هنا هذا القول) « القوانين الاكثر شمولاً للحركة في الطبيعة والتاريخ » وانها مستخلصة من التجربة ،

---

١ — لينين ـ الدفاتر الفلسفية ـ ص ٤٦ .

٢ — لينين ـ الدفاتر الفلسفية ـ ص ٨٨ .

ومن النشاط العملي البشري ، ومن مجموع العلوم ، ومن التقنيات ، ومن النشاط العملي الاجتماعي .

فليست هذه ـــ اذن ـــ قوانين خالدة للفكر . وانما هي تلخص تجربة العلم والنشاط العملي البشري في ظرف من ظروف تطوره .

ان الفلسفة المادية الديالكتيكية، بخلاف جميع المذاهب السابقة، ليست علماً فوق سائر العلوم ، وانما هي تؤلف أداة للبحث العلمي ، وطريقة تنفذ الى جميع العلوم الطبيعية والاجتماعية ، وتغتني بمكاسب هذه العلوم خلال نموها (١) .

بّين ستالين، عند نهاية المناقشة في علم اللغة، ان المناهضة للجمود المذهبي هي طابع جوهري المادية الديالكتيكية : « الماركسية ، من ناحية كونها علماً ، لا تستطيع البقاء في المكان نفسه : انها تنمو وتكمل ذاتها . والماركسية لا تستطيع ، في نموها ، الا ان تغتني من التجارب الجديدة والمعارف الجديدة ؛ويترتب على هذا ،انه لا يمكن لبعض صيغها واستنتاجاتها الا ان تتغير بتغير الزمن ، ولا يمكن لها إلا ان تُستبدل بصيغ واستنتاجات جديدة تطابق المهمات التاريخية الجديدة . ان الماركسية لا تقر استنتاجات وصيغاً ثابتة لا تتغير ، اجبارية تفرض في جميع العهود وجميع المراحل . الماركسية عدو كل جمود مذهبي (٢) . »

فعلى المادية ـــ اذن ـــ ان تغير شكلها عند كل اكتشاف يسجّل مرحلة ، في حقل العلوم وتجربة الانسان التاريخية

١ ـــ انظر جدانوف « في الادب والفلسفة والموسيقى ص ٤٥ - ٤٦ و ص ٥٥.

٢ ـــ ستالين-«الماركسية في علم اللغة »منشورات **la nouvelle critique** ص٦٤ .

والاجتماعية .

والحق انه خلال هذه السنوات الخمس الاخيرة ، في الاتحـاد السوفياتي ، ثمة مرحلة حاسمة تجتاز في حقل العلوم والتجربة الاجتماعية.

لقد حققت اربع خطوات حاسمة تسمح بدفع نظرية المعرفة الى الامام :

اولا : في شهر آب ١٩٤٨ فتحت المناقشة الواسعة (التي جرت في اكاديمية لينين للعلوم الزراعيـة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية) والتي انتهت بانتصار باهر للميتشوريني وليسنكو ، يعني انها انتهت بانتصار الداروينية الخلاقة ، فتحت هذه المناقشة آفاقاً جديدة لنظرية المعرفة ؛ لقد جاءت المبادي الاولية لوحدة العضوية والبيئة، والتطور الموجه للكائنات الحية، ووراثة الخصائص المكتسبة، والتحول على مراحل ، جاءت هذه بعناصر جديدة لعلم التكون النفسي ، ذات اهمية جوهرية كبرى .

ثانياً : ان الجلسة التي عقدتها منذ ٢٨ حزيران حتى ٤ تموز سنة ١٩٥٠ اكاديمية العلوم واكاديمية الطب في الاتحاد السوفياتي ، تلك الجلسة المخصصة لقضايا نظرية بافلوف **Pavlov** الفيزيولوجية ، مع جميع الاعمال التي اثارتها تلك الجلسة ، تتيح لنا اعادة التفكير بعمق، في نظرية الانعكاس ؛ ان تطوير مفهوم الفعل المنعكس المشروط قد اعطى مضموناً غير متناهي الغنى عن « الاحساس من ناحيـة كونه نشاطاً عملياً . » والدراسة البافلوفية للمحللات **analyseurs** هي في اساس الابحاث العلمية الجديدة في الادراك الحسي؛ والتعميق الذي قام به خلفاء بافلوف لفروضه عن الجهاز الثاني للاشارة(١) يعطي

Signalisation (1)

اساساً جديداً لمفهوم علمي عن اصل المدرك والحكم jugement ، يعني انه يلقي ضوءاً على كل تكون الفكر .

ثالثاً : في حزيران وتموز عام ١٩٥٠ القت تصويبات ستالين «الماركسية في علم اللغة» ضوءاً جديداً على العلاقات بين اللغة والفكر، وعلى علاقات الفكر مع مجموع النشاط العملي الاجتماعي ، وهي ، باعطائها مثالا للماركسية الخلاقة ، قد استثارت تجديداً للابحاث في المنطق، وقد نوقشت خلال سنة ١٩٥١ وهي اليوم تؤتي أكلها.

رابعاً : ان مشروع تحويل الطبيعة على قارتين ، المنشور في ٢٠ تشرين الاول ١٩٤٨، والمشروع الخامس للسنوات الخمس، اللذين أعدا لخلق القواعد المادية للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، أقول ان هذين المشروعين يطرحان في شكل جديد ، من ناحية الكيف ، قضية علاقات النظرية بالنشاط العملي، ودور الفكر بوصفه من عناصر تطوير الواقع؛ وتكتسي الفلسفة هنا دلالة اجتماعية جديدة ، مطبقة صيغة ماركس : « لقد اقتصر الفلاسفة ، حتى الآن على تفسير العالم بصور مختلفة، والمهم الآن هو تغييره .» فمهمة نظرية المعرفة هي ان تفكر في هذا المدلول الكوني للفكر البشري الذي اشار ستالين ، في مؤلفه الاخير « **القضايا الاقتصادية للاشتراكية** » الى جميع آفاقه الخلاقة .

وتقدم سلسلة اخرى من الابحاث والاكتشافات العلمية التي هي في الدرجة الاولى من الاهمية ، والمحققة في ورشة المستقبل هذه الرحيبة ، تقدم للتعميم النظري المعرفي **gonséologique** مادة غنية: اعمال فافيلوف **Vavilov** في المسائل الفيزيائية والفيزيولوجية للضوء ،

والنظرية المتعلقة بعلم قوانين الكون ، التي جاء بها امبارتسوميان **Ambartsoumian** وشميدت **shmidt** ، وابحاث ليبيشنسكايا في الاشكال اللاخلوية من الحياة **formes acellulaires** وفرضيات أوبارين **Oparine** الكبرى عن اصل الحياة ، والمناقشات الغنية في المدلول الفلسفي للميكانيك الكوانتي ، وللنسبية ، وخصوصاً تقرير جدانوف في حزيران ١٩٤٧ عن قضايا تاريخ الفلسفة ، الذي أدى الى دفع تحليل مفهوم الموضوعية ، خطى واسعة الى الامام ، ان هذا كله (وهو لا يمثل الا بعض الجوانب من غليان فكري خلاق هائل) يسمح بتقديم عناصر جديدة للنظرية المادية في المعرفة .

اما وقد عرفنا الطريقة على هذا النحو ، فان مخطط مؤلفنا يتفرع بالضرورة على النحو التالي :

اولا: علينا في البدء رسم خطوط **لما قبل تاريخ الوعي .** وانه لمشروع مبالغ في دعواه مبالغة جنونية ، ومقدر له الاخفاق لو كنا ندعي مثل ما ادعاه هيغل : الانطلاق من الطبيعة غير العضوية ، وبيان كيف توصلت الطبيعة بكاملها في الانسان ، الى ان تعي ذاتها . ان وضع المسألة بهذا الشكل ، على الطريقة الهيغلية ، يعني ان نطلب من فيلسوف واحد تحقيق ما تستطيعه الانسانية وحدها في تطورها التدريجي .

سوف نكتفي ، مرتكزين على المعطيات الحديثة لعلوم الطبيعة ، بتعيين النقاط العقدية لتحول المادة غير الحية الى المادة الحية ، من نشأة الحياة الى ظهور الوعي .

وفي هذا الانتقال من المادة غير العضوية الى الفكر ، لن نحاول اخفاء الثغرات المؤقتة في معرفتنا . بل على نقيض ذلك، سوف نبين موضع هذه الحلقات المفقودة، والطابع الذي ما يزال فرضياً، لبعض هذه الحلقات التي استعيدت ، ولكن الثابت هو ان كل اكتشاف علمي عظيم ، يضيء هنيهة جديدة ما ، من هنيهات هذا الانتقال .

ثانياً : سوف نعرض، بعد ذلك **نظرية الانعكاس** ، وهي نقطة انطلاق النظرية المادية للمعرفة : ان احاسيس الانسان ومدركاته هي انعكاسات مضبوطة (بدرجات متفاوتة) لاشياء الطبيعة وحركات تطورها .

والانعكاس لا يعني مطلقاً « التأمل السلبي » ، وانما على نقيض ذلك ، يتعلم الانسان ، على قاعدة التحويل العملي للطبيعة ، اكتشاف قوانين العالم الموضوعية ، والنفوذ الى جوهر الاشياء .

ان الدراسة البافلوفية للنشاط العصبي العالي، ببيانها كيفية حدوث الانتقال من الاشكال الدنيا للانعكاس الى اشكال اعلى ، فقط تحت الدافع الديالكتيكي لتناقضات الحركة في مختلف مستوياتها ، هذه الدراسة تؤلف مكسباً حاسماً للنظرية المادية للمعرفة ببيانها الاسس المادية فيها .

وسيكون علينا ، بوجه خاص ، في هذا القسم من مؤلفنا ، فحص المرحلة الحسية والمرحلة العقلية في المعرفة ، وفحص علاقاتهما المتبادلة : الانتقال من الاحساس الى المدرَك ، والقوانين العامة للانعكاس .

ان قضية القيمة الموضوعية للمدرَك العلمي وللنظرية العلمية تؤدي

بنا الى دراسة العلاقات بين الحقيقة النسبية، والحقيقة المطلقة.

وهذه المسألة تؤدي بنا الى مسألة معيار الحقيقة .

ثالثاً : واخيراً سوف نحلل دور **النشاط العملي la pratique** في المعرفة . ان مسألة معيار الحقيقة ، ومثلها مسألة نظرية الانعكاس في مجموعها ، سوف ،تفحص مرتبطة بالنشاط العملي . ذلك لان النشاط العملي وحده يثبت موضوعية الانعكاس .

ولا تستطيع المعرفة ان تكون ، وهي في مستوى الاحساس ، نافعة بيولوجياً في حفظ الحياة، الا اذا كانت تعكس الواقع الموضوعي .

وهذا ايضاً ما يحدث في جميع درجات تطور المعرفة ، يعني الانعكاس . ان النشاط العملي هو مصدر جميع حركات التطور المعرفية : إنه يطرح المسائل ، ويساعد في الحصول على الأجوبة . إنه أسمى مرجع للحكم على معرفة الانسان .

هذا النشاط العملي ، هو اجتماعي . وهو نشاط عملي طبقي . وليس ثمة مطلقاً اية معرفة متولدة منه، تنجو من هذا الطابع الطبقي. وسوف نقدم امثلة على ذلك بنقد نظرية « علم الظاهرات في المعرفة» وهذا ما يؤدي بنا الى فحص علاقات الموضوعية والموقف الحزبي في الفلسفة وفي العلوم .

ولسوف تتوقف دراستنا عند المرحلة التي تفضي فيها نظرية المعرفة الى نظرية الحرية .

منشورات
دار المعجم العربي
بيروت

النظرية المادية في المعرفة

تصدر تباعـــاً في اجزاء

1) ما هي المادية
2) الحركة في الطبيعة
3) من ظهور الحياة الى ظهور الوعي
4) الدرجة الحسيّة من المعرفة
5) الدرجة العقلية من المعرفة
6) الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة
7) المدلول الطبقي لكل نظرية في المعر

الثمن : ٧٥ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها